الفصل الحادى عشر

فولتير فى فرنسا

١ — فى باريس : ١٧٢٩ — ١٧٣٤

لدى عودة فولتير من إنجلترا فى أواخر عام ١٧٢٨ أو أوائل عام ١٧٢٩ اتخذ مسكنا مغمورا فى حى سان جرمان — ان لى — على بعد ١١ ميلا إلى الشمال الغربى من باريس ، وحشد أصدقاءه لينشروا أنباء غير رسمية عن إلغاء قرار نفيه من فرنسا ثم من العاصمة ، ونجحوا فى هذا ، بل فى استعادة معاشه الملكى كذلك . وما حل شهر أبريل حتى ظهر فجأة ، وأخذ يجول خلال العاصمة . وفى أحد الاجتماعات سمع أن العالم الرياضى كوندا مين حسب أن من يشترى كل أوراق « اليانصيب » التى تصدرها باريس لا بد أن يحقق ثراء ، فأسرع فولتير واقترض نقودا من رجال المصارف من أصدقائه ، واشترى كل الأوراق ، فكان ما تنبأ به العالم الرياضى ، ولكن المراقب العام للحسابات رفض الدفع ، فرفع فولتير دعوى أمام القضاة وكسب القضية وتسلم المبلغ [1] وفى أخريات عام ١٧٢٩ قطع ١٥٠ ميلا فى ليلتين ونهار واحد من باريس إلى نانسى ليشترى أسهما فى مشروع دوق اللورين ، وعادت عليه هذه المغامرة بأرباح طائلة . وهكذا أعان فولتير مدبر الأعمال المالية فولتير الشاعر الفيلسوف .

ونراه فى ١٧٣٠ مرة أخرى فى باريس مفتونا إلى حد الجنون بالمغامرات والمشروعات . وكان لديه عادة عدة أعمال أدبية قيد الانجاز فى وقت واحد ، يتنقل من واحد إلى الآخر ، ولذة الهوى فى التنقل ، دون أن يضيع وقتا . وكان آنذاك يكتب رسائل عن الانجليز وتاريخ شارل الثانى عشر « موت الآنسة ليكوفرير » ، والصفحات الأولى فى الغادة العذراء . وذات يوم ١٧٣٠ اقترح عليه زوار الدوق دى ريشيليو وهم

يتحدثون عن جان دارك أن يكتب لها تاريخا ، ولم يكونوا بعد فى فرنسا قد اعترفوا بها قديسة حامية لفرنسا . وبدا للمفكر الحر فولتير أن العناصر الخارقة للطبيعة فى أسطورة جان دارك تشد انتباهه إلى معالجة تاريخها معالجة فكاهية . فتحداه ريشيليو أن يحاول ذلك ، وكتب فولتير المقدمة فى تلك الليلة ، ولم تكن مرثيته فى ليكوفرير قد نشرت بعد ، ولكن صديقه الأخرق نيقولا ثيوريو كان قد قرأها على الملأ على أوسع نطاق . وأستأنفت الأصوات اللاهوتية البغيضة طنينها المزعج خول رأس فولتير .

وفى ١١ ديسمبر وكأنما كان فولتير ظمآنا إلى كسب الأعداء ، أخرج قصته لوسيوس جينيوس بروتوس الذى أطاح طبقاً لرواية ليفى بعرش الملك تاركينيوس وأسهم فى إقامة الجمهورية الرومانية ، وأنكرت المسرحية على الملوك قدسيتهم وعدم جواز انتهاك حرماتهم ، ونادت بحق الشعب فى تغير حكامه . وشكا الممثلون من أن الرواية خاليه من فكرة الحب ووافقت باريس على أنها بدعة خرقاء سخيفة . وسميت المسرحية بعد عرضها ١٦ مرة . وبعد اثنين وستين عاما أعيد تمثيلها من جديد ، لأن باريس كانت آنذاك تواقه إلى مشاهدة مقصلة لويس السادس عشر .

وفى نفس الوقت كان فولتير قد حصل على ترخيص ملكى بنشر « تاريخ شارل الثانى عشر ملك السويد » . وهنا كان الموضوع لا يكاد يسئ إلى لويس الخامس عشر أو الكنيسة ، كما يسر الملكة ، لأن الرواية تناولت موقف أبيها ستانسلاس بشكل لائق كريم . وظهرت طبعة من ٢٦٠٠ نسخة فى الوقت الذى ألغى فيه الترخيص الملكى دون سابق إنذار ، وصودرت كل النسخ فيما عدا واحدة احتفظ بها فولتير . واحتج فولتير لدى حامل الاختام فأبلغ أنه قد حدث تغيير فى السياسة الخارجية مما كان لزاما معه ارضاء غريم شارل الثانى عشر وضحيته ، وهو أوغسطس « القوى » الذى ما زال ملكا على بولنده . وقرر فولتير أن يتجاهل أمر الحظر وانتقل متنكراً إلى روان وباشر طبع تاريخه سراً . وفى أكتوبر ١٧٣١ تداوله الناس فى حرية مطلقة وأقبلوا على قراءته وكأنه قصص .

وذهب بعض النقاد إلى أنه محشو بالخيال ، وأسماه بعض المؤرخين الواسعى الاطلاع رومانسية « فى أسلوب مشرق بارع فى السرد القصصى ، ولكنه غير دقيق فى التفاصيل[٢] ولكن فولتير كان قد أعد الكتاب على طريقة الباحث المدقق إنه لم يطلع على وثائق الدولة فحسب بل إنه كذلك توقف ليستقى المعلومات من مصادرها الأصلية : الملك السابق ستانسلاس ، ماريشال دى ساكس دوقة مالبرو ، بولنجبروك ، آكسل سبار (الذى اشترك فى معركة نارفا) فونسيكا (طبيب برتغالى كان يعمل فى تركيا أثناء وجود شارل هناك) والبارون فابريس (سكرتير شارل سابقا) . وأكثر من هذا فإن فولتير كان قد أقام فترة مع البارون فون جورتز وزير شارل ذى الحظوة لديه . وربما حول إعدام البارون ١٧١٩ نظر فولتير إلى دراسة أسد الشمال « وفى ١٧٤٠ أشار جوران نورد برج الذى كان قسيس شارل إلى الأخطاء التى وقع فيها فولتير ، وقام فولتير بتصويب هذه الأخطاء فى الطبعات اللاحقة . وكانت هناك أخطاء أخرى وبخاصة فى الوصف التفصيلى للمعارك . وجادل النقاد المتأخرون[٣] فى أن فولتير بالغ فى تقدير شارل على « إنه الرجل الاكثر استثناء وخرقا للعادة الذى ظهر على الأرض » وجمع فى شخصيته بين أعظم مناقب أسلافه . ولا عيب فيه ولا ينغص عليه حياته إلا أنه جمع بين هذه المناقب فى إفراط زائد[٤] وربما تخفف الكلمة الأخيرة من حدة النقد ، فقد أوضح فولتير أن شارل جاوز الحد وأفرط فى التحلى بهذه المناقب البطولية حتى أصبحت عيوبا وعددها ، ومنها التبذير والتهور والقسوة وعدم القدرة على المغفرة والصفح . كما أوضح كيف أن أخطاء الملك قد أضرت بالسويد . وانتهى إلى أن شارل « كان رجلا شاذا استثنائيا لا رجلا عظيما[٥] » وعلى أية حال لم يكن الكتاب عملا ثقافيا فحسب ، بل عملا فنيا كذلك — من حيث التركيب والشكل والحيوية والأسلوب — وسرعان ما أقبل كل المتعلمين فى أوربا على قراءة شارل الثانى ملك السويد وذاعت شهرة فولتير إلى حد لم يسبق له مثيل .

وأصبح فولتير بعد عودته من روان (٥ أغسطس ١٧٣١) ضيفا مقيما

على الكونتيس دى فونتين مارتل فى قصرها بالقرب من « الباليه رويال » ، وقد وجدت فى رفقته سعادة بالغة حتى ظلت تؤويه وتطعمه حتى مايو ١٧٣٣ وترأس فى حيوية شديدة ولائم العشاء الأدبية التى كانت تقيمها ، ومثل المسرحيات وبخاصة مسرحياته هو على مسرحها الخاص . وفى أثناء إقامته هناك كتب نص « أوبرا شمشـــون » لرامو — وهو ملحن فرنسى فى القرن الثامن عشر (١٧٣٢) — ومن المحتمل أنه شهد من مقصورة الكونتيس فى « المسرح الفرنسى » سقوط روايته « اريفيل » (١٧٣٢) كما شهد النجاح الباهر الذى لقيته مأساة زائير (١٣ أغسطس ١٧٣٢) فكتب إلى صديق له : « ما مثلت رواية بمثل الروعة التى مثلت بها زائير فى عرضها الرابع . وكم وددت لو أنك كنت معى لتشهد أن الجمهور لم يسخط على صديقك ، وظهرت فى المقصورة ، واتجهت كل الأيدى بالتصفيق لى ، فأستحييت وخبأة نفسى . ولكنى أكون مرائياً إذا لم اعترف لك بأنى قد اهتزت مشاعرى وتأثرت كثيراً [٦] .

وظلت هذه المسرحية أحب مسرحياته إليه حتى النهاية . إنها كلها ليس لها وجود الآن ، قضى عليها تغير الأذواق والأمزجة والأسلوب ، ولكنا يجدر بنا أن نبعث أحداها على الأقل من قبرها ، لأنها لعبت جميعاً دوراً مثيراً كبيراً فى حياته . وزائير طفلة مسيحية أسرها المسلمون فى صباها فى الحروب الصليبية ، ونشأوها على العقيدة الإسلامية ، وهى لا تعرف إلا القليل عن فرنسا اللهم إلا أنها مسقط رأسها ، وهى الآن غادة فاتنة فى حريم السلطان أوروزمان فى بيت المقدس . وهام بها السلطان وهامت هى به حباً . وفى مستهل الرواية كانت على وشك أن تصبح زوجة له . وتؤنبها أسيرة مسيحية أخرى اسمها فاتيما على نسيانها أنها كانت مسيحية . وفى رد زائير توضيح لأثر الجغرافيا فى تحـــديد العقيدة الدينية : « إن أفكارنا وعاداتنا وعقيدتنا الدينية إنما تشكلها الأعراف والتقاليد والنزعة القومية السائدة فى أيامنا الأولى . فإذا رأت النور على ضفاف نهر الكنج لعبدت أوثان الهند . وإذا ولدت فى باريس لكنت مسيحية . وأنا الآن مسلمة سعيدة . إننا لا نعرف إلا ما تلقناه إن أبدى الأبوين اللذين يتوليان تربيتنا

وتعليمنا هى التى تنقش على قلوبنا الغضة تلك الأحرف التى ينقحها الزمن ويصقلها . وتعمل القدرة على تثبيتها عميقة فى عقولنا ، ولا يقدر على محوها إلا الله (٧) .

ويصور فولتير أوروزمان رجلا يتحلى بكل الفضائل بشكل واضح إلا الصبر . إن المسيحيين ليصعقون ويذهلون إذ يرون مسلما وقوراً مهذباً مثل المسيحيين . وتتولى السلطان الدهشة إذ يرى مسيحية فاضلة ، ويرفض أن يحتفظ بحريم، ويعد بالاقتصار على زوجة واحدة . ولكن فولتير كان منصفاً لشخصياته المسيحية كذلك ، فهو ينظم أبياتاً عامرة فى جمال الحياة المسيحية الحقة . وهناك أسير مسيحى آخر هو نير ستام ، وقع فى الأسر فى طفولته كذلك ، ونشأ مع زائير ، وفك أساره حين تعهد بالرجوع ليفتدى بالمال عشرة من الأسرى ، ويذهب ثم يعود ليدفع مبلغ الفدية المطلوب من ماله الخاص . ويكافئه أوروزمان بإطلاق سراح مائة لا عشرة فقط من المسيحيين . ولكن نير ستام بحزن لأن زائير ولوسنيان لم يكونا من بين من أطلق سراحهم ، ومكان هـذا ملك بيت المقدس (١١٨٦ — ١١٨٧) . وتناشد زائير السلطان أوروزمان أن يطلق سراج لوسنيان ، فيجيبها إلى طلبها . إن الملك العجوز يعتبر زائير فى منزلة ابنته ونيرستام فى منزلة ابنه . إنها الآن موزعة بين حبها للسلطان الكريم وولائها لأبيها وأخيها وعقيدتهما المسيحية . ويهيب بها لوسنيان أن تتخلى عن السلطان والإسلام معاً : « أواه يا إبنتى ، فكرى فى الدم الزكى الذى يجرى فى عروقك ، دم عشرين ملكاً كلهم مسيحيون مثلى ، دم الأبطال ، دم المدافعين عن العقيدة ، دم الشهداء والقديسين . إنك لا تعرفين مصير أملك ، إنك لا تعرفين أنه فى نفس اللحظة التى ولدت فيها ذبحها أوائك المتبربرون الذى تعتنقين دينهم البغيض على مرأى منى . إن إخوتك والشهداء الأعزاء يمدون إليك أيديهم من السماء ، يريدون أن يحتضنوا أختا لهم . آه يا ابنتى ! تذكريهم ! إن الرب الذى خنث عهده . لفظ النفس الأخير من أجلنا ومن أجـل البشر جميعاً . انظرى إلى الجبل المقدس الذى قتل عليه مخلصنا ، والمقبرة التى نهض منها ظافراً منتصراً . فى كل طريق تمشين فيه سترين خطوات الرب ، هل

تنكرين حالقك ؟ زائير : . . . يا إلهى العظيم . . . تكلم يا أبتاه ماذا أفعل ؟ لوسنيان : . . . أذهبى عنى العار والحزن بكلمة منك ، وقولى أنى مسيحية . زائير : إذن يا إلهى ، أنا مسيحية . . . . .

لوسنيان : أقسمى بأنك ستحفظين هذا السر الخطير ه .

زائير : اقسم لك على ذلك (٨) .

ولما علم نيرستام بإصرارها على الزواج من أوروزمان ، راوده التفكير فى قتلها ، ولكن رق قلبه ، وألح فى قبولها التعميد فوافقت ، وبعث إليها برسالة يحدد فيها مكان وزمان الاحتفال بتعميدها ، وحسب أوروزمان الذى لم يكن يدرى أن نيرستام أخوها ، إنها رسالة حب وغرام ، ويفاجىء زائير فى الموعد المضروب ، ويطعنها . ثم يكتشف أن العشيقين المزعومين ليسا إلا أخاً وأختاً ، فينتحر .

إن حبكة الرواية موضوعة ببراعة ، مبسوطة بطريقة مسرحية متماسكة وهى تمثل فى شعر سلس موسيقى . وإننا لندرك من خلال القطع العاطفية التى تبدو الآن ثقيلة مبالغاً فيها ، والسبب فى أن باريس أغرمت بزائير وأوروزمان ، وفى أن الملكة الصالحة الحزينة ذرفت الدموع عند تمثيل المسرحية للحاشية فى فونتنبلو . وترجمت المسرحية إلى الإنجليزية ومثلت بسرعة فى انجلترا وإيطاليا وألمانيا ، ونودى آنذاك بفولتير أعظم شاعر على قيد الحياة فى فرنسا ، وخلفاً صالحاً لكورنى وراسين . ولكن هذا لم يرق فى عينى جان بابتست روسو ، وهو شاعر فرنسى مقيم فى المنفى فى بروكسل ، فحكم على زائير بأنها « مسرحية تافهة فاترة . . . مزيج كريه من التدين والفجور » . فرد عليه فولتير شعراً فى معبد الذوق » يشهر فيه بروسو ويمجد موليير .

وبلغ فولتير ذروة المجد وعانق النجوم ، ولكنه لم يكف عن العمل . ففى شتاء ١٧٣٢ — ١٧٣٣ درس الرياضيات كما درس نيوتن ، مع ضحيته مستقبلا موبرتوى Moupertuis ، وأعاد كتابة « ايريفيل Eriphile » ونقح زائير وشارل الثانى عشر ، وجمع مادة كتابه « قرن لويس الرابع

عشر » ووضع اللمسات الأخيرة على كتابه « رسائل عن الإنجليز » وأخرج مسرحية أخرى (أليد) كما كتب أشياء صغيرة لا تحصى : رسائل ، قصائد مدح ، اقتراحات ، بعض الحكم الساخرة ، بعض أغانى الحب — وكلها تتسم بالظرف فى نظم رقيق مصقول . وعندما ماتت مضيفته السخية ، مدام دى فونتين مارتل ، انتقل إلى داره فى شارع (لونج بزان) واشتغل بتصدير القمح . ومذ جمع بين التجارة والقصص ، فإنه التقى (١٧٣٢) بالسيدة جبرييل اميلى لى تونلييه دى برتيل مركيزة دى شاتيليه ، وارتبطت حياته بحياة السيدة الفذة المغامرة حتى وافاه الأجل المحتوم .

وكانت آنذاك فى السادسة والعشرين (وهو فى الثامنة والثلاثين) ، وكانت حياتها بالفعل حافلة متعددة الجوانب فهى ابنة البارون دى برتييه ، ولذلك تلقت تعليما غير عادى . حتى أنها فى سن الثانية عشر تعلمت اللاتينية والإيطالية وغنت غناء رخيما ، وعزفت على البيان الصغير ، وبدأت فى سن الخامسة عشرة تترجم الإلياذة إلى الفرنسية شعراً ، وأضافت إلى هذا اللغة الإنجليزية ودرست الرياضيات على يدى موبرتوى . وفى التاسعة عشرة تزوجت المركيز فلورنت كلود دى شاتيليه لومونت ، وكان فى الثلاثين من العمر . وأنجبت له ثلاثة أطفال . ولكن فيما عدا هذا لم يكن للواحد مبهما يرى الآخر إلا لماماً ، حيث كان هو عادة مشغولا مع فرقته ، أما هى فبقيت قريبة من الحاشية وقامرت بمبالغ طائلة ، وجربت الحب . فلما هجرها عشيقها الأول تناولت سماً ، وأنقذوها على كره منها بواسطة عقار مقيىء ، واحتملت فى رباطة جأش جربتها من قبل ، هجران عشيق ثان هو الدوق دى ريشيليو ، لأن كل فرنسا عرفت قصة تقلبه بين النساء .

والتقى فولتير بالمركيزة على مائدة العشاء فلم ينزعج ، بل سرته قدرتها على التحدث فى الرياضيات والفلك والشعر اللاتينى . ولم تكن مفاتنها طاغية لا سبيل إلى مقاومة إغرائها ، ولكن سيدات أخريات أسرفن ، فى وصفها ، استمع إلى مدام دى دفان وهى تقول : (امرأة ضخمة متحفظة لا أوراك لها ، صدرها هزيل ؛ . . . ذات ذراعين ضخمين ورجلين

كبيرين ، وقدمين ضخمتين ، ورأس صـــغير جـداً ، وقسمات حادة ، وأنف محدد وعينين صغيرتين خضراوين تميلان إلى الزرقة . سمراء البشرة أسنانها رديئة [٩] » واتفقت معها المركيزة دى كريكى فقالت « إنهـا عملاقة ــ ماردة ، ذات قوة جبارة ، وكانت فضلا عن ذلك آية فى القبـح والبشاعة ، وكان جلدها فى لون مبشرة جوزة الطيب الداكنة ، إنها تشـبه فى جملتها جندياً طويل القامة قبيح الصورة . ومع ذلك تحدث فولتير عن جمالها [١٠] » . أن سانت لامبرت الوسيم أحبها سراً عند ما كانت فى الثانية والأربعين . وليس لنا أن نثق فى رأى السيدات بعضهن فى البعض الآخر . وقد يتبين من صورها الشخصية أن اميلى كانت طويلة القامة مسترجلة ، ذات جبهة مديدة ونظرة متعجرفة ، ولم تكن قسمات وجهها غير جذابة ، وقد نشعر بشىء من الاطمئنان إذا علمنا أن (لها صدراً شهوانياً ولـكنه راسخ [١١]) .

ويمكن أن تكون أميلى قد كان فيها ما يكفى من الرجل ليـكمل المرأة فى فولتير . ومهما يكن من أمر فإنها لجأت إلى كل الحيل والوسائل الأنثوية لتصلح ما أفسد الدهر من جمالها ــ مستحضرات التجميل والعطور والمجوهرات والحلى والمخرمات . وسخر فولتير من ولعها بالتزين .. ولـكنه أعجب بتحمسها للعلوم والفلسـفة . فهنا سيدة استطاعت حتى فى غمرة الصخب والضوضاء فى باريس وفرساى أن تنسحب من مائدة القمار ، لتدرس نيوتن ولوك ، إنها لم تقرأ نيوتن فحسب بل أنها استوعبته كذلك وهى التى ترجمت قوانين نيوتن إلى الفرنسية ، ووجد فولتير أنه من اللائق أن يتخذ من نفس المرأة رفيقة دراسة وعشيقة فى وقت معاً . وفى ١٧٣٤ اعتبر نفسه بالفعل الرجل الذى ترتضيه عشيقاً لها : (يا إلهى ! أية لذة ومتعة أجدها بين ذراعيك كم أنا سعيد بالإعجاب بالمرأة التى أحبها [١٢] !)

٢ ــ رسائل عن الإنجليز

فى عامى ١٧٣٣ و ١٧٣٤ نشر فولتير بعد عناء شديد أول إسهامه فى عصر الاستنارة ، وكان عبارة عن ٢٤ رسالة موجهة من انجلترا إلى تيبريو

وترجمت إلى الإنجليزية وصدرت فى لندن (١٧٣٣) رسائل متعلقة بالأمة الإنجليزية . ولكن كان فى طبع الأصول فى فرنسا مغامرة بحرية المؤلف وصاحب المطبعة كليهما . وخفف فولتير من بعض الأجزاء ، وحاول أن يحصل على إذن من الحكومة بطبع البقية ، فرفضوا منحه الترخيص ، وهنا لجأ ثانية إلى نشرها سراً فى روان . وحذر الناشر جور من تسرب أية نسخة للتداول لبعض الوقت على الأقل ، ولكن فى أوائل ١٧٣٤ ، وصلت عدة نسخ إلى باريس تحت عنوان « رسائل فلسفية » . وحصل أحد قراصنة الناشرين على نسخة ، وأصدر منها طبعة كبيرة العدد دون علم فولتير . وفى نفس الوقت كان فولتير ومدام دى شاتيليه قد قصدا إلى قصر مونتجى بالقرب من أوتون على مسافة ١٩٠ ميلا من باريس ليحضرا حفل زفاف ريشيليو .

وبدأ الكتاب بأربع رسائل عن جماعة الكويكرز الإنجليزية ، وأوضح فولتير أن هؤلاء الكويكرز ليس لهم تنظيم كنسى ولا قساوسة ولا أسرار ولا قرابين مقدسة ، ومع ذلك مارسوا الشعائر المسيحية فى إخلاص وإيمان أكثر من أى مسيحيين عرفهم . ووصف أوتخيل زيارة قام بها لواحد منهم وقال : « سألت واحداً منهم : سيدى العزيز ، هل عمدوك ؟ فأجاب « لا لم أعمد لا أنا ولا إخوتى » . وصحت فى وجهه : عجباً كيف يكون هذا إذن أنتم لستم مسيحيين ! فأجاب فى صوت هادىء خفيض يابنى ، لا تقسم ، نحن مسيحيون » « ونحن نحاول أن نكون مسيحيين صالحين ، ولكننا لانرى أن المسيحية مجرد صب ماء بارد مع قليل من الملح على الرأس وعارضته . (يا إلهى ! لا تتحدث بهذا الضلال ! هل نسيت أن يوحنا عمد المسيح ؟) فرد قائلا : يا صاحبى ، لا تقسم بعد ذلك ، إن يوحنا عمد المسيح ولكن المسيح لم يعمد أحداً . . . وتحن أتباع المسيح لا أتباع يوحنا فقلت له : (واحسرتاه أيها المسكين جزاؤك الحريق فى بلاد محاكم التفتيش وسألنى (هل أجروا لك عملية الختان ؟) .

فأجبته (لم يكن لى شرف الختان) .

فقال : (حسناً ، أنت مسيحى دون ختان ، وأنا مسيحى دون تعميد)

وقال الكويكرز إن التعميد مثل الختان من العادات السابقة على المسيحية وقد أبطلها إنجيل السيد المسيح الجديد . ثم استطرد فولتير يتحدث عن الحرب (لن نذهب أبداً إلى الحرب ، لا لأننا نخشى الموت ، بل لأننا لسنا ذئاباً ولا نموراً ، ولا كلابا نحن رجال مسيحيون . أن إلهنا الذى أمرنا نحب أعداءنا يقينا لا يريد منا أن نعبر البحر لنقتل إخوة لنا ، لمجرد أن السفاحين الذين يرتدون ثيابا فى لون الدم وقبعات عالية ترتفع إلى قدمين يجندون المواطنين بينما يحدثون جلبة باثنتين من العصى ممدتين على جسم حمار . وبعد النصر تتألق لندن كلها فى الأضواء وتلتهب سماؤها بالألعاب النارية وطلقات المدافع ، على حين نرثى فى صمت للمذبحة التى أدت إلى مثل هـذا الابتهاج العام[١٣] .

لقد أوذيت فرنسا أيما إيذاء ، وكادت أن تدمر نفسها لمحاولتها فرض عقيدة واحدة على جميع الفرنسيين . وأسهب فولتير فى وصف التسامح بالنسبة للخلافات الدينية فى إنجلترا . « هذه بلد الطوائف . والرجل الإنجليزى ، باعتباره حرا يسلك إلى السماء الطريق الذى يختاره . [١٤] ووازن فولتير بين أخلاق رجال الدين الإنجليز وأقرانهم الفرنسيين ، وهنأ الإنجليز بأنهم ليس لديهم رهبان . إن الانجليز ليحمدون الله ويشكرونه على أنهم بروتستانت حين يعلمون أن الشبان الفرنسيين المعروفين بفسقهم وفجورهم يرقون إلى مناصب الأساقفة والمطارنة بفعل الدسائس ، ويؤلفون الأغانى الرقيقة ويقيمون ولائم العشاء الباذخة كل يوم تقريباً ، ويطلقون على أنفسهم أنهم خلفاء الرسل . [١٥] وفى الرسالة الثامنة أدار فولتير الخنجر إلى صدر الحكومة فى فرنسا : « إن الأمة الانجليزية وحدها هى التى عرفت كيف تحدد سلطة الملوك بوقوفها فى وجههم . . . وأخيرا أقامت هذه الحكومة الرشيدة ، وفيها يتمتع الملك بكل القوة والسلطة فى أن يفعل الخير ، على حين تغل يداه عن الإتيان بأى شر أو سوء . (وهنا يردد فولتير عبارة مشهورة مأثورة عن رواية فنيلون « تليماك » . ان إقرار الحرية فى إنجلترا تطلب ثمناً غالياً

ولا ريب ، فقد أغرق صنم الحكم الاستبدادى المطلق فى بحر من الدماء ، ولكن الإنجليز لا يرون أنهم اشتروا القوانين العادلة الصالحة بثمن باهظ ، فهناك أمم أخرى مرت بمحن وأوقات عصيبة لا تقل عما عاناه الإنجليز ، ولكن الدماء التى أريقت دفاعا عن قضية الحرية لم تكن إلا تثبيتاً لعبوديتها[٢١]

إن حق التحقيق فى قانونية حبس التهم فى إنجلترا يحرم السجن دون قضية محددة ، ويتطلب محاكمة علنية ، بواسطة المحلفين ، أما فى فرنسا فهناك « الأوامر السرية المختومة » . وقبل مونتسكيو بأربعة عشر عاما ، رأى فولتير « فصل السلطات فى الحكومة الانجليزية وامتدحه وبالغ فيه ، كما رأى تنسيق العمل بين الملك ومجلس اللوردات ومجلس العهوم . وأشار فولتيرا إلى أنه لا يمكن فرض ضرائب إلا بموافقة البرلمان » « وأنه لا يعفى أحد من ضرائب معينة . . . لأنه نبيل أو كاهن . »[١٧] وفى إنجلترا يشتغل صغار أبناء النبلاء بالتجارة وبمختلف المهن ، أما فى فرنسا فإن التاجر غالبا ما يسمعهم يتحدثون عن مهنته فى ازدراء واحتقار ، حتى يبلغ به الحمق إلى حد الشعور بالخزى والعار من الاشتغال بالتجارة . ولست أدرى أيهما أنفع للدولة — نبيل متأنق يعرف بالضبط متى يصحو الملك من نومه أو يأوى إلى فراشه ، ويستشعر العظمة حين يقوم بدور العبد الرقيق . . . أو رجل أعمال (مثل فوكنر مضيف فولتير فى لندن ، يثرى وطنه ويصدر الأوامر من مكتبه إلى سورات والقاهرة ، ويسهم فى اسعاد العالم بأسره[١٨] وأخيرا فى قطعة تضمنت برنامجا لفرنسا ذهب فولتير إلى : أن الدستور الإنجليزى بلغ قمة التفوق وكان من نتيجة ذلك أن كل الناس استعادوا حقوقهم الطبيعية ، على حين أنهم محرمون منها فى سائر الملكيات تقريبا . وهذه الحقوق هى الحرية الكاملة فى أشخاصهم وفى ممتلكاتهم : حرية الصحافة حق المحاكمة بناء على نص صريح فى القانون ، وحق كل إنسان فى اعتناق العقيدة التى يرتضيها دون إزعاج .[١٩]

ولا بد أن فولتير عرف أن فريقا من الناس فقط هم الذين تمتعوا بهذه الحقوق الطبيعية ، وأن الحرية الشخصية لم تتحرر من خطر الرقابة الصحفية ،

وينصرفوا إلى دراسة نيوتن . إن حكم الرأى العام فى إنجلترا على هذين المفكرين هو أن أولهما كان حالما والثانى حكيما . وقدر فولتير أعظم تقدير إضافات ديكارت إلى الهندسة ، ولكنه لم يستسغ الدوامات الكونية عند ديكارث . إنه أقر بأن ثمة شيئاً وهميا غامضا ، أو على الأقل مخدرا فى مقالات نيوتن عن الكرونولوجيا القديمة (تقسيم الزمن إلى فترات وتعيين تاريخ الأحداث) وسفر الرؤيا ، وأوحى فولتير بشكل لطيف بأن نيوتن كتب هذه المقالات ليعزى البشرية عن تفوقه البالغ عليها [٢١] إنه وجد أن نيوتن ما زال عويصا يصعب فهمه ، ولكن اجتماع الرجال البارزين فى الحكومة وفى ميدان العلوم لتشييع جنازته ترك فى نفسه أثرا عقد معه العزم على دراسة قوانين نيوتن ، وعلى أن يكون رسول نيوتن إلى فرنسا ، وهنا أيضا غرس فولتير بذور دائرة المعارف وعصر التنوير .

وأخيرا صدم فولتير الفكر الدينى فى فرنسا بنقد لاذع وجهه إلى آراء بسكال . إنه لم يقصد تضمين هذا فى رسائله ، فليس لهذا علاقة بانجلترا ؛ ولكنه كان قد أرسله من إنجلترا إلى تيير ١٧٢٨ ، فألحقه الناشر اللص بالرسائل باسم الرسالة رقم ٢٥ ، وكانت النتيجة أن الجانسنيين — الذين قدسوا بسكال إلى حد العبادة ، وسيطروا على برلمان باريس — ، فاقوا الآن اليسوعيين (الذين لم يحبوا بسكال قط) فى استنكار فولتير وشجبه وكان فولتير غير قابل أساساً للاتفاق مع بسكال حيث كان فى هذه المرحلة (اللهم إلا فى رواياته) عقلانيا متشدداً لم يكن قد وجد بعد مجالا للوجدان فى فلسفته . وكان لا يزال شابا ممتلئا حيوية ونشاطا ينعم بالحياة وسط محنه البطولية ، ومن ثم عارض التشاؤم الجزوع الكئيب عند بسكال « ولسوف أتجاسر فأقوم بدور الجنس البشرى ضد هذا المبغض للبشر المهيب » [٢٢] ورفض « رهان » بسكال (أى أنه من الأحكم أن نراهن على وجود الله لا العكس) باعتباره عملا صبيانيا يجافى الحشمة والوقار . . . إن اهتمامى بالاعتقاد بشىء ليس برهاناً على أن هذا الشىء موجود » [٢٣] ولم يعرض بسكال الرهان (على أنه برهان) وسلم بأنه ليس فى مقدورنا أن نفسر الكون أو نعرف قدر

وأنه كانت هناك حدود وقيود على حرية الكلام فى الدين وفى السياسة ، وأن المنشقين والكاثوليك كانوا مستبعدين من الوظائف العامة . وأنه كان من الميسورة فى إنجلترا رشوة القضاة ليتجاهلوا القانون . إن فولتير لم يدون وصفا نزيها لواقع إنجلترا . أنه كان يستخدم إنجلترا سوطا يحرك به الثورة فى فرنسا ضد ظلم الدولة أو الكنيسة . أن كون كل هذه الحقوق تقريبا أصبحت الآن قضية مسلما بها فى البلدان المتحضرة يضفى على ما أنجزه القرن الثامن عشر روعة وجلالا .

ولا يقل عن هذا أهمية فى أثره على الفكر الحديث امتداح فولتير لبيكون ولوك ونيوتن . إنه قال عن بيكون الذى اتهموه وجرحوه ما حكم به بولنجبروك على مالبرو « إنه رجل بلغ من العظمة حدا لا أستطيع معه أن أتذكر هل كان له أخطاء أم لا » (٢٠) ثم أردف يقول « إن هذا الرجل العظيم بيكون هو أبو الفلسفة التجريبية لا من أجل التجارب التى قام بها ، بل بما وجه من نداءات قوية للنهوض بالبحث العلمى . وتلك هى الفكرة التى حدت بديدرو ود المبرت إلى القول بأن بيكون هو أول من أوحى إليهم بدائرة المعارف التى وضعوها .

وخصص فولتير لجون لوك كل الفصل الثالث عشر تقريبا . إنه لم يجد فيه مجرد علم العقل بدلا من أسطورة النفس ، بل وجد فلسفة كاملة حتى انه بارجاعه كل المعرفة إلى الشعور ، حول الفكر الأوربى عن الإلهام الإلهى إلى الخبرة الإنسانية ، باعتبارها المصدر الوحيد للحقيقة وأساسها . ورحب برأى لوك فى انه يمكن تصور إن المادة يمكن تمكينها من التفكير وغصت بهذه العبارة بالذات حلوق رجال الرقابة الفرنسية ، وكان لها أثر كبير فى الحكم على الكتاب وادانته . ويبدو أنهم تنبأوا فيها بمادية لامترى وديدرو . ورفض فولتير ان يسلم نفسه إلى المادية ، ولكنه عدل عبارة ديكارت « أنا أفكر إذن أنا موجود » إلى « أنا جسم وأنا أفكر ولاشىء غير هذا » .

« أشارت الرسالة الرابعة عشرة على الفرنسيين أن يتخلصوا من ديكارت

الإنسان ، ولـكنه ارتاب فى أننا نستطيع من هذا الجهل أن نستنتج صدق قانون الإيمان المسيحى الذى جاء به الرسل . كما أنه لم يحس فى هذا العصر المرح المفعم بالحيوية بأى تعاطف مع تطلع بسكال إلى الراحة والدعة ، حيث نادى بأن الإنسان « خلق ليعمل . . . فعدم العمل وعدم الوجود سيان بالنسبة للإنسان [٢٤] » .

وليست « ملاحظات على أفكار بسكال » أفضل ما كان يمكن أن تجود به قريحة فولتير . إنه لم يكن قد أعدها للنشر ، ولم يكن لديه الفرصة لمراجعتها وتنقيحها . وقضت الأحداث اللاحقة — مثل زلزال لشبونه — على نضارة تفاؤله الفتى . وعلى الرغم من هذا الملحق غير المدروس وغير الجدير بالاعتبار ، فإن « الرسائل الفلسفية » كانت أحد المعالم البارزة فى الأدب الفرنسى والفكر الفرنسى . فهنا لأول مرة ظهرت الجمل الموجزة الدقيقة والوضوح المبين والذكاء المرح والتهكم اللاذع ، وأصبح كل هذا منذ الآن طابعا أدبيا مميزا يتجاوز ويتجاهل الحرص على إنكار اسم المؤلف . إن هذا الكتاب ، وكتاب الرسائل الفارسية حددا أسلوب النثر الفرنسى من عهد الوصاية إلى عصر الثورة . وفوق هذا فانها أحكمت حلقة من أقوى الحلقات فى الربط بين المفكرين الفرنسيين والإنجليز ، وهى كما قدر بكل « أهم حقيقة إلى حد بعيد فى تاريخ القرن الثامن عشر » [٢٥] إنها كانت بمثابة إعلان حرب ومخطط شن حملة . وقال روسو عن هذه الرسائل انها قامت بدور كبير فى إيقاظ عقله . ولا بد أن آلافا من شباب فرنسا دانوا لها بمثل هذا الفضل . وقال عنها لافاييت انها صيرته جمهوريا وهو فى التاسعة من عمره . ورأى هين « إنه لم يكن لزاما على رقيب المطبوعات أن يصادر هذا الكتاب حيث كان لا بد من قراءته بغير هذا الإجراء » [٢٦]

وأحست الكنيسة والدولة والملك والبرلمان أنهم لم يعودوا يطيقون صبراً على مثل هذه الجراح الكثيرة فى صمت ، فأرسل صاحب المطبعة إلى سجن الباستيل ، وصدر أمر سرى مختوم بالقبض على فولتير أينما وجد . وفى ١١ مايو ١٧٣٤ ظهر أحد رجال الشرطة يحمل أمرا بالقبض عليه . ولكن من

المحتمل أن موبرتوى ودار جنتال كانا قد حذرا فولتير فغادر فرنسا قبل ذلك بخمسة أيام . وبناء على أمر من البرلمان فى ١٠ يونيه أحرق كل ما وجد من نسخ الكتاب بيد مأمور التنفيذ العام فى فناء قصر العدل باعتباره عملا شائناً ينافى الدين والأخلاق القوميـــة ويتعارض مع الاحترام الواجب للسلطات العامة .

وقبل معرفة المركيزة دى شاتيليه بوصول فولتير سالما إلى اللورين كتبت إلى صديق لها : « أنا لا أطيق صبراً على مجرد علمى بأنه فى السجن وهو فى مثل هذه الصحة والعافية وقوة الخيال . وأنا لا أحبذ ذلك مطلقاً » . وأجمعت هذه السيدة والدوقة دى بشيليو وغيرهما من السيدات ذوات المكانة الرفيعة أمرهن على العمل معاً للحصول على عفو عنه . ووافق حامل الاختام على إلغاء أمر القبض إذا أنكر فولتير تأليفه للكتاب . لكن تلك كانت خدعة لأنه علم علم اليقين أن فولتير هو المؤلف . وكان حامل الأختام هذا أحد موظفى الحكومة الذين لطفوا من حدة الرقابة من آخر بالأعضاء عما فى الكتاب من مآخذ . ووافق فولتير فوراً على إنكار أنه المؤلف . وهذه كذبة بيضاء من الممكن الصفح عنها بسهولة . فضلا عن أن الكتاب الذى برئ من تأليفـــه وزع دون موافقته . وكتب فولتير إلى الدوقة دى ايجوبون :

يقولون إنه يجب على أن أتراجع . . . بكل سرور . . سأعلن أن بسكال على حق دائماً وأن القساوسة مهذبون وديعون منزهون عن الغرض « وإن الرهبان ليسوا متغطرسين ولا منصرفين إلى تدبير الدسائس ، ولا حقراء وأن محاكم التفتيش المقدسة هى انتصار للإنسانية والتسامح [٢٧] .

وألغى أمر القبض على شرط أن يبقى فولتير بعيداً عن باريس . فتنقل من قصر إلى قصر قرب حدود المدينة ورحب به النبلاء الذين لم يتمسكوا كثيراً بأهداف الدين، كما لم يميلوا مطلقاً إلى الحكومة الملكية المركزية المستبدة وتلقى دعوة بالإقامة فى بلاط هولشتين مع معاش قدره عشرة آلاف فرنك سنوياً ولكنه رفض[٢٨] وفى يوليه أوى إلى قصر مدام دى شاتيليه فى سيرى

فى شمبانيا . وهناك وهو الضيف الذى يتحمل نفقات عشيقته وروجها بدأ أسعد سنى حياته .

٣ — أنشودة الحب فى سيرى ١٧٣٤ — ١٧٤٤

سيرى الآن قرية عدد سكانها ٢٥٠ شخصاً فى مقاطعة المارن الأعلى فى شمال شرقى فرنسا على بعد بضعة أميال من اللورين ، وصفتها مدام دنيس ابنة أخى فولتير ١٧٣٨ بأنها منعزلة موحشة على بعد أربعة فراسخ من العمران فى منطقة لا يرى المرء فيها شيئاً غير الجبال والأرض غير المزرعة [٢٩] وربما أحبها فولتير لأنها بقعة هادئة حيث يستطيع أن يتفرغ فيها لدراسة العلوم وكتابة التاريخ والفلسفة ، وتنساه الحكومة الفرنسية . أما إذا لاحقته فإنه يستطيع الانطلاق منها هربا إلى اللورين فى ظرف ساعة واحدة .

وكان القصر طللا متهدما من مخلفات القرن الثالث عشر . قلما أقام فيه آل شاتيليه ولم يكن يصلح للسكنى منذ أمد بعيد ، ولم يهتم المركيز باصلاحه ، أو لم يكن لديه المال لهذا الغرض ، فأقرضه فولتير ٤٠ ألف فرنك بفائدة قدرها ٥ ٪ للقيام بالاصلاحات اللازمة ولم يطالب المركيز قط بسداد هذا القرض . وأعدت بعض غرف شغلها فولتير ، وأمر ببناء جناح جديد ، وأشرف على ترميم بقية القصر . وفى نوفمبر وصلت المركيزة ومعها مائتا حقيبة من الأمتعة ، وعدلت من إصلاحات فولتير بما يتناسب مع ذوقها الخاص ، وأقامت هناك — وهى التى كانت قضت معظم سنى شبابها بين الحاشية الملكية أو قريباً منها — منصرفة إلى الدراسة مع زوجها وعشيقها فى وقف معا . وأقام المركيز اللطيف معها ومع فولتير بين الحين والحين حتى ١٧٤٠ ، محتفظا لنفسه فى لباقة بشقة خاصة به وبمواعيد خاصة لتناول الطعام وحده . وبعد ذلك قضى معظم وقته مع كتيبته . وكانت دهشة فرنسا وإعجابها بكياسة الزوج أقل منها باخلاص العشيقين .

وفى ديسمبر عادت مدام شاتليه إلى باريس وزارت الدوقة رويشيليو فى معتقلها ، وأقنعت الحكومة بإلغاء الأمر باقصاء فولتير عن العاصمة (٢ مارس ١٧٣٥) فقصد إلى باريس وأقام فيها عدة أسابيع مع خليلته ،

ولـكن ماضيه لاحقه . فإن أجزاء من شعره الفاجر كان يتناقلها الناس . ولم يتمالك هو نفسه قراءة بعض قطعه القوية على أصدقائه . كمـا نشر أحد الناشرين اللصوص « رسالة إلى أورانيا » ، وكان فولتير قد كتبها قبل ذلك بخمس عشرة سنة ، وقد هاجم فيها المسيحية ، فأنكر أنه مؤلفها بطبيعة الحال ولـكنها كانت تحمل بصمات أسلوبه وفكره . ولم يصدق إنكـاره أنه المؤلف ، فهرب ثانية إلى اللورين ، ومنها فى حيطة وحذر إلى سبرى . وتلقى من الحـكومة تأكيدات عن طريق غير مباشر بأنه إذا ظل هناك دون أن يرتـكب أية مخالفة أخرى فلن يعكر صفوه أحد . ولحقت به مدام دى شاتيليه مع ابنتها وابنها ومعلمهما ، وكان طفلها الثالث قد مات . وهنا أخيرا بدأ شهر عسل فلسفى .

وكان لـكل من الفيلسوفين مجموعة غرف خاصة به على جانبى القصر . وكانت شقة فولتير تتـكون من حجرة انتظار ومكتب ، مكتبة وحجرة نوم وكسيت الجدران بنسيج من المخمل الأحمر المنقوش ، وازدانت بالألوحات التى اقتنى منها فولتير مجموعة ثمينة منها لوحة من رسم تيشيان وعدة لوحات من رسم تنيير . كما كان هناك تماثيل فينوس وكيوبيد وهركيوليز ، ولوحة كبيرة لصديقها الجديد الأمير فردريك ولى عهد بروسيا . وعلى حد تعبير مدام جرافينى . كانت النظافة تامة فى هذه الحجرات إلى حد « يمكن معه تقبيل الأرض » (٣٠) أما جناح المركيزة فكان مختلفاً عن هذا ذوقا : اللون الأصفر الفاتح واللون الأزرق الباهت مع لوحات من رسم فيرونيز وواتو ، وصورة السقف وارضيته من الرخام ، ومائة من الصناديق والزجاجات الصغيرة والخواتم والمجوهرات وأدوات الزينة متناثرة هنا وهناك فى حجرة ملابسها الصغيرة . وبين مجموعتى الغرف كانت هناك قاعة كبيرة أعدت لتكون معملا للفيزياء والكيمياء . فيها مضخات هواء ومقاييس حرارة وأفران وبوتقات ومنظار مقرب (تلسكوب) ومجهر (ميكروسكوب) ومنشورات وبوصلات وموازين . وكان هناك عدة غرف للزوار ، لم تكن مؤثثه تأثيثاً جيدا . وعلى الرغم من القماش المنقوش على الجدران كانت رياح الغابات

تتسال إلى القصر من خلال الشقوق والنوافذ والأبواب . وكان لزاما لتدفئة هذا القصر إلى حد مقبول وجود ٣٦ مدفأة تستهلك فى اليوم الواحد ستة (كوردات) من الخشب (الكورد = ٢٨ قدما مكعبا من الخشب) . ويمكن أن نتخيل عدد الخدم اللازمين له ، أضف إلى ذلك مسرحا لأن فولتير كان يحب أن يمثل وبخاصة فى رواياته هو وإنه ليؤكد لنا أن المركيزة كانت ممثلة بارعة ، وكان الضيوف والمعلم والخدم يحيطون بشخصيات الرواية، ويعتوا بالأوبرا ، أحيانا لأن المركيزة (كما يؤكد فولتير مرة أخرى) كان صوتها ملائكيا . كما كان هناك عروض لمسرح العرائس وعروض بالفانوس السحرى ، قرنها فولتير بتعليقات أغرقت الحاضرين فى الضحك .

ولكن اللهو كان طارئا أما العمل فكان نظاما يوميا . وكان العاشقان عادة ، يعملان منفصلين كل فى نطاقه ، ولو أنهما تعاونا أحيانا فى العمل ، وقلما كان الواحد منهما يرى الآخر فى أثناء النهار إلا فى وجبة الطعام الرئيسية عند الظهر تقريبا . وكان المركيز يترك المائدة قبل أن يبدأ الحديث . وغالبا ما انسل فولتير أيضا إلى مكتبه تاركا الآخرين يتسامرون . وكان له هناك أدوات مائدته الخاصة به لأنه يتناول طعامه وحده أحيانا . وإنا لنرى قبه بحق محدثا ممتعا ممتلئا بالحيوية ، ويمكن أن يكون محط الأنظار ومبعث الحياة فى أى اجتماع يشهده ، ولكنه كان يكره الحديث التافه . وكان يقول « هذا الوقت الذى نقضيه فى الحديث يزعجنى كثيرا ويجدر بنا ألا نضيع دقيقة واحدة ، إن أكثر ما نضيع هو الوقت [٣١] وكان يخرج أحيانا لصيد الغزال حبا فى الرياضة .

وجدير بنا ألا نصور الرفيقين الفلسوفين على أنهما ملاكان ، فيمكن أن تكون السيدة جافة مستبدة بل قاسية بخيلة بعض الشىء عنيفة مقترة مع خدمها وكانت تحتج إذا تقدم فولتير أجراً أكبر ، ولم يكن بها استحياء من شىء فى جسمها ، فلم تكن تأبه كثيرا لخلع ملابسها جميعا أمام سكرتيرهما لو تجشامب ، أو تكليفه بصب الماء الساخن عليها وهى فى الحمام . وكانت

تطلع خفية على الرسائل التى يكتبها ضيوفها أو ترد إليهم ، وليس لدينا دليل على هذا إلا شهادة سيدة أخرى [٣٣] أما فولتير فكان له مئات الأخطاء التى ستتكشف فى الوقت المناسب . كان شاعرا مزهوا وكان سريع الغضب والتجهم كأنه طفل ، وكثيراً ما هاجم عشيقته وتشاجر معها ، وما كان هذا الشجار على أية حال إلا سحب صيف تؤكد سادة أيامهما ، وسرعان ما كان فولتير يعود إلى هدوئه وابتسامته وابتهاجه . وما كان يمل الحديث عن سعادته وعن حبه لرفيقته بطريقته الهادئة . ونظم لها مائة قصيدة حب قصيرة كل منها تصوير بارع فى فن محكم . وكانت إحدى هذه الدرر الأدبية مع خاتم من حجر كريم نقشت عليه صورته : « بنقش يبرز هذه القسمات ليقع عليها بصرك . أنظرى إليها لتقرى عينا بها . أما صورتك فهى منقوشة فى أعماق قلبى بيد صناع أكثر حذقا وبراعة . [٣٤] » .

أما هى فقالت لا أطيق فراقه لمدة ساعتين دون أن يمزقنى الألم [٣٥] .

ومن بين العشيقين الفيلسوفين كانت هى أكثر انصرافا إلى العلم وانكبابا عليه منه . ونفذت قانون سيادة المرأة غير المسطور فى إخفاء مخطوطة كتاب فولتير « قرن لويس الرابع عشر » الذى لم يكمل بعد ، ووجهته بشدة إلى دراسة العلوم بوصفها الدراسة الحقة لرجل العصر الحديث . ووصفتها مدام دى جرانينى ، وكانت ضيفاً عليها فى ١٧٣٨ ، بأنها أكثر مثابرة على أبحاثها العلمية من فولتير ، حيث كانت تقضى معظم النهار وجزءاً كبيراً من الليل فى مكتبها . وفى بعض الأحيان حتى الساعة الخامسة أو السابعة صباحاً . [٣٦] وكان موبرتوى يأتى من حين لآخر إلى سيرى ليتابع دروسه لها فى الرياضيات والفزياء . وربما كانت هذه الزيارات بالاضافة إلى إعجاب المركيزة السافر بسعة علم موبرتوى ، هى التى أثارت الغيرة فى قلب فولتير الشديد الحساسية ، فأدت إلى الملاكمة والشجار بينهما فى برلين .

وهل كانت دى شاتيليه عالمة باحثة حقاً ، أم أنها اتخذت من العلم سبيلا للأناقة ومجاراة مقتضيات العصر . ورأت مدام دى ديفان وبعض سيدات أخريات أن دراستها وأبحاثها كانت مجرد مظهر كاذب ، وزعمت المركيزة

دى كريكى « أن الجبر والهندسة اقتربا بها من حافة الجنون ، على حين أن تحذلقها وكلفها الشديد بموضوع دراستها جعلاها لا تحتمل . والواقع أن ذهنها تشوش بكل ما تعلمته أو عرفته[٣٧] ولكن استمع إلى مدام دى جرافينى وهى تصف لنا جلسة فى سيرى .

« فى هذا الصباح قرأت علينا ربة البيت عملية هندسية لمؤلف إنجليزى حالم . . . وكان الكتاب باللغة اللاتينية ؛ وقرأته علينا بالفرنسية ، وترددت ملحظة عند كل عبارة ، وكأنى بها تتفهم العمليات الهندسية ، ولكن لا ، إنها ترجمت بسهولة المصطلحات الهندسية والأرقام والألفاظ الغريبة ، ولم تتوقف فى شىء . ألا يثير هذا الدهشة حقاً ؟ [٣٨] .

وأكد فولتير لتيريو أن مدام دى شاتيليه كانت تعرف الانجليزية جيداً ، وأنها عرفت كل مؤلفات شيشرون الفلسفية ، وكانت مولعة جداً بالرياضيات والميتافيزيقا [٣٩]. وذات مرة بزت العالم الفيزيائى وعضو الأكاديمية دى ميران فى مناقشة عن الطاقة الحركية[٤٠] وقرأت شيشرون وفرجيل فى الأصل اللاتينى وأريستو وتاسو بالإيطالية ، ونيوتن بالانجليزية ، وعند ما زار الجاروتى سيرى تحدثت معه بالإيطالية . وكتبت ولكن لم تنشر كتابا من ستة مجلدات عن دراسة « سفر التكوين » ، مبنية على أعمال الربوبيين الانجليز عرضت فيه للمتناقضات والأشياء البعيدة الاحتمال والأعمال غير الأخلاقية والأفعال الظالمة فى الكتاب المقدس . وكانت رسالتها عن السعادة بحثاً أصيلا عن أسس السعادة ، حيث رأت أن هذه الأسس هى الصحة والحب والفضيلة والانغماس الذاتى العقلانى ، ثم طلب العلم والمعرفة . وترجمت قوانين نيوتن من اللاتينية إلى الفرنسية ، وأشرف على طبعها كلرو ، ونشرت بعد وفاتها بست سنوات (١٧٥٦) . وألفت عرضا موجزا لنظام العالم نشر فى ١٧٥٩ وأعلن فولتير ربما من قبيل الشهامة والود ، أنه يفوق كتابه « مبادىء فلسفة نيوتن » (١٧٣٨) [٤١] وعندما أعلنت أكاديمية العلوم (١٧٣٨) عن جائزة لأحسن بحث عن طبيعة النار وانتشارها ، ودخل فولتير المسابقة كتبت هى سرا البحث وقدمته دون ذكر اسمها ، وكتبته فى الليل لتخفيه عن فولتير (حيث أتى فى بحثى عارضت كل آرائه تقريبا [٤٢]) ولم يفز أى منهما بالجائزة التى حصل

أولر . ولكن الأكاديمية طبعت مقاليهما ، وامتدح كل منهما مقال الآخر فى نشوة الحب العقلى .

ومن أجل موضوعه هو ، قام بعدة تجارب بعضها فى معمله وبعضها فى مسبك فى شومون المجاورة [٤٣] ودرس فولتير التكلس وكان قاب قوسين أو أدنى من اكتشاف الأوكسجين[٤٤] . ونراه فى مايو ١٧٣٧ يكتب إلى الراهب موسينو فى باريس يطلب إليه كيميائيا للحضور إلى سيرى لقاء مائة جنيه سنويا مع الإقامة الكاملة . ولكن كان على هذا الكيميائى أيضا أن يتلو القداس فى أيام الآحاد والعطلات فى كنيسة القصر [٤٥] . أتته من جانبه آمن الآن بالعلم وحده . وكتب فى ١٧٤١ ينبغى أن نعتقد فى صحة ما تكشف عنه لنا عيوننا وما تكشف عنه الرياضيات . أما فيما عدا هذا فيجدر أن نكتفى بالقول بأننا لا نعرف [٤٦] . فالفلسفة كانت تعنى عنده آنذاك خلاصة العلم :

وبهذا المعنى استخدم فولتير هذا الاصطلاح فى مؤلفه « مبادىء فلسفة نيوتن أملا فى الترخيص الملكى بنشره ، ولكنه لم يجب إلى طلبه ، وظهرت منه طبعة فى أستردام (١٧٣٨) دون موافقته . وصدرت طبعته هو هناك فى عام ١٧٤١ ،وكانت عبارة عن مجلد ضخم يضم ٤٤٠ صفحة، نموذجا رائعا لما يسميه الفرنسيون «دون تعمد الانتقاص من قدره» تبسيطا، أى محاولة لتيسير فهم العويص الصعب منه إلى أكبر حد ممكن . وأضاف المشرف على الطبع عنوانا فرعيا وضع ليكون فى متناول الجميع . وغير الراهب ديفونتين هذا العنوان الفرعى فى نقد غير ودى إلى « عويص على كل الناس» وعلى النقيض من ذلك امتدح الجميع الكتاب بل أن اليسوعيين تقبلوه بقبول حسن فى صحيفة تريفو[٤٧] . وهنا طردت الجاذبية الكونية التى كشفها نيوتن دوامات ديكارت من أذهان الفرنسيين . وشمل كتاب فولتير عرضا لبصريات نيوتن ، وتحقق من التجارب فى معمله الخاص ، وحاول إجراء تجارب أخرى من عنده ، وحاد عن طريقه قليلا ، ليؤكد اتساق فلسفة

نيوتن مع الإيمان بالله . وفى نفس الوقت أكد شمولية القانون فى العالم المادى .

وعلى الرغم من كل هذه الجهود لم يكن لفولتير روح رجل العلم ولا تحديداته وقيل أنه أخفق فى أن يكون رجل علم . وينبغى بنا أن نرجح القول بأنه كان شخصا ثريا متعدد الجوانب إلى حد لا يستطيع معه أن ينصرف إلى العلم كل الانصراف بصفة نهائية . أنه استخدم العلم وسيلة لتحرير العقل ، حتى إذا تم له ما أراد انصرف إلى الشعر والمسرحية والفلسفة بأوسع معانيها ، والانهما كانت الانسانية فى الشئون الأساسية فى عصره «يجب أن نهيء الطريق فى حياتنا لكل أساليب المعرفة والوجدان ونفتح أمامها الأبواب لتنفذ إلى نفوسنا ، فإذا لم تتبدد هذه شذر مذر فإن هناك مكانا فسيحا لكل شيء[٤٨]» وهكذا كتب فى ذلك الوقت (١٧٣٤) بحث فى الانسان ردد فيه إلى حد كبير آراء بوب فى نفس الموضوع ، حتى إلى درجة أجازة فكرة غير فولتيرية «كل شيء صواب[٤٩]» . ونظم فى هذه السنوات معظم غادة أورليان (جان دارك) . وربما كان هذا انتجاعا لبعض الراحة من عناء نيوتن . وشرح فلسفته فى رسالة فى الميتافيزيقا ، وقد رأى من الحكمة أن يحجم عن نشرها .

وكانت رسالة فذة مثل سائر انتاجه ، وبدأها بأن تخيل نفسه زائراً وافدا من كوكب المشترى إلى كوكب المريخ ، ومن ثم رأى أنه لا يتوقع منه أن يوفق بين أراثه وبين ما جاء به الكتاب المقدس . وحط رحاله بين كفار جنوب أفريقية . وينتهى إلى أن الانسان حيوان أسود الجلد شعره شبيه بالصوف ، ثم ينتقل إلى الهند ليجد أناسا صفر اللون ذوى شعر سبط غير مجعد ، فيستنتج أن الانسان جنس يتألف من عدة أنواع متميزة لا تنحدر كلها من أصل أو سلف واحد [٥٠] ويحكم من مظاهر النظام فى العالم ومن التركيب الهادف ذى المعنى فى أعضاء الحيوان بأن هناك ربا ذكيا يصمم أو يركب صور الجميع . ولا يرى دليلا على وجود نفس خالدة غير فانية

فى الانسان ، ولـكنه يشعر بأن ارادته حرة . وقبل هيوم وآدم سميث بزمن طويل نرى فولتير يستمد روح الأخلاق من التعاطف بين الناس بعضهم مع بعض ، وقبـل هلفشيوس وبنتام بزمن طويل أيضا نرى فولتير يحـدد الفضيلة والرذيلة بمـا هو مفيد وغير ضار بالمجتمع [٥١] وسنعود إلى هذه الرسالة فيما بعد .

وكم اختلفت هذه الرسالة عن الشعر المرح الذى نظمة فولتير فى تاريخ جان دارك وأنا إذا فتحنا هذه الملحمة الساخرة اليوم فلا بد لنا أن يقفز إلى ذاكرتنا أن الكلام الفرنفسى والأدب الفرنسى كانا أكثر تحررا آنذاك منهما فى النصف الأول من القرن الشرين . ولقد رأينا نموذجا فى الرسائل الفارسية للحاكم مونتسكيو ، بل أن ديدرو كان أكثر حرية لا فى الجواهر المنظومة فحسب ، بل فى جاك المؤمن بالقضاء والقدر كذلك . فإذا قورنت جان دارك بهذين الكتابين كما نشرها أخيرا فولتير فى ١٧٥٦ ، لوجدناها معتدلة بشكل محمود . ومن المحتمل أن الأصل الذى جرى تداوله سرا كان أقرب إلى أسلوب رابيليه ، ودافع كوندرسيه الوقور الرزين عن القصيدة وروى أن مالشرب وهو أحد كبار موظفى الحكومة الفرنسية حفظها عن ظهر قلب [٥٢] ، ووجد فى القسم الحادى والعشرين من القصيدة بعـد بحث مجهد ، بعض أبيات معتدلة فى فسقها وشهوانيتها يمكن التجاوز عنها مثل الصور الشبيهة بها عند آريوستو ، وقد عوض عنها بقطع كثيرة تقدم وصفا رائعا وسردا بارعا ، وكان فولتير مثل كثير من الفرنسيين فى زمانه يرى فى جان دارك بنتا فلاحة بريئة ساذجة ، وربما كانت ابنه غير شرعية استسلمت للخراقات واعتادت سماع (الأصوات) ، وارتاب فى أن فرنسا كان لا بد أن تنقذ من الغزو الانجليزى حتى ولو لم تولد هى قط . وفيه عدا هذا ومع التسامح فى بعض الأخطاء التاريخية ، فإنه روى القصة بأمانة مع تمليحها ببعض الدعابه ومال الملك برأسه نحو جان الباسلة التى لا تهاب شيئا ، وقال فى صوت مهيب يرهبه الجميع إلا هى وحدها ، أنصتى إلى ياجان ، إذا كنت عذراء حقا فأقسمى اليمين ، فأجابت : مولاى العظيم ،

أصدر أوامرك الآن إلى الأطباء الحكماء الخبيرين بأسرار النساء ونظاراتهم على أنوفهم ؛ ورجال الدين والصيادلة وكبيرات الممرضات الخبيرات ليجتمعوا على الفور للفصل فى الأمر ، فليدققوا النظر ويروا ومن هذا الجواب الحكيم عرف شارل أنها لا بد أنها ملهمة تلقت وحيا ، وأنها تتمتع بنعمة العذوية المقدسة المباركة ، ثم قال الملك حسنا يا ابنة السماء ، ما دمت تعرفين كل شىء فأخبرينى ماذا حدث بينى وبين زوجتى فى الفراش فى الليلة الماضية؟ توسل إليك تحدثى بصراحة ، فقالت جان لا لم يحدث شىء . فدهش الملك وركع وصاح بصوت عال :: أنها معجزة ، ثم رسم علامة الصليب وانحنى احتراما واجلالا [٥٣] .

وقرأ فولتير على ضيوفه مقطعاً أو مقطعين من جان دارك رغبة فى تسليتهم ، وليبعث الدفء فى أمسيات الشتاء الباردة . وكانت مدام دى شاتيليه تحتفظ بالمخطوطة الضخمة فى خرز أمين ، وسمح فولتير فى استخفاف وإهمال بتداول بعض الأجزاء بين أصدقائه ونسخ بعضها وتناقلها المجتمع غير المهذب على نطاق أوسع مما كان من الحكمة أن يكون . وكان الخوف من أن تقاضيه الحكومة الفرنسية — لا بسبب فحش القصيدة بل بسبب الهجاء اللاذع فى بعض أجزائها للرهبان واليسوعيين والأساقفة والبابوات ومحاكم التفتيش — من بواعث القلق والهموم التى أقضت مضجعه وعكرت عليه صفو حياته .

وكان فولتير أكثر جدية ووقارا فى الزير Alzire « التى بدىء بعرضها بشكل يدعو إلى السعادة والابتهاج على المسرح الفرنسى فى ٢٧ يناير ١٧٣٦ . وحققت التاريخ المسرحى بارتداء الممثلين الثياب التى كانت سائدة فى الزمان والمكان المحددين لأحداث الرواية — الغزو الأسبانى لدولة بيرو وسلبها ونهبها . ويتوسل الفاريت الحاكم الأسبانى للبلد المغلوب على أمره إلى المنتصرين أن يضعوا حداً لقسوتهم وجشعهم فيقول « نحن سوط العذاب الذى انصب على هذه الدنيا الجديدة ، نحن عابثون جشعون ظالمون . . . نحن المتبربرون وحدنا هنا أما المتوحشون السذج البسطاء ، ولو أنهم عنيفون

بطبيعتهم ، فانهم شجعان بواسل مثلنا ، ولـكنهم يفوقوننا فى الميل إلى الخير وطيبة النفس [٥٤] . وصفقت باريس لهذه الرواية لمدة عشرين ليلة متوالية ودفعت ٥٣ر٦٤٠ جنيها ، وتنازل فولتير عن نصيبه من دخـــل الرواية للممثلين .

وفى ٨ أغسطس ١٧٣٦ تلقى فولتير أول رسالة من فردريك ملك بروسيا ، ومن هنا بدأت مراسلات مشهورة وصداقه فاجعة . وفى نفس العام نشر قصيدة « الرجل الدنيوى » وكأنما كانت رداً مسبقاً على رسالة روسو « بحث فى الفنون والعلوم » (١٧٥١) أن فولتير ضاق ذرعاً بالحالمين الواهمين الذين يضفون المثالية على الإنسان البدائى غير المتمدن الودود الصاعد « أو يحبذون الرجوع إلى الطبيعة » هربا من الانفعال وتوتر الأعصاب والنفاق والخداع فى الحياة الحديثة . إنه هو نفسه كان مستريحاً وسط ما يعانى من بلايا ومحن ، ورأى أنه كان لزاماً عليه أن يقول كلمة طيبة فى المدنية انصافاً لها . إنه لم يجد أية فضيلة أو ميزة فى الفقر ، أو أى انسجام بين الجراثيم والحب وربما كان البدائيون شيوعيين ، وهذا فقط لأنهم لم يكونوا يملكون شيئاً . وإذا اتسموا بالاعتدال والقصد والرزانة فما ذاك إلا لأنهم لم يكن لديهم خمور « وأنا من جانبى أحمد للطبيعة الحكيمة أنها من أجل سعادتى أنجبتنى فى هذا العصر الذى يحط من قدره نقادنا الذين تعروهم الكآبة والانقباض . إن هذا الزمن الدنس ملائم كل الملاءمة لحياتى فأنا أحب الترف والبذخ بل الحياة الناعمة وكل الملذات والفنون على اختلاف أنواعها ، والنظافة والذوق والزينة والزخرفة وبدا له كل هذا مفضلا لديه بشكل واضح على جنات عدن « أبى العزيز آدم ، اعترف أنك ومدام حواء كانت لـكما أظفار طويلة سوداء بما فيها من أقذار ، وان شعره كما كان أشعث أغبر إلى حد ما . . . . وعبثا حاول العلماء أن يعينوا مكان جنة عدن . . . إن جنة الأرض هى التى أعيش فيها أنا الآن .

ولم ترق فى أعين رجال الدين الصورة التى رسمها فولتير لآدم وحواء ، وأصروا على أن سفر التكوين تاريخ صحيح ، ولم يقروا فولتير على ما جاء

به عن أظافر آدم وشعر حواء ، وتعالت الأصوات مطالبة بالقبض على شيطان سيرى الكافر . وحذره الأصدقاء مرة ثانية ، فاعتزم الرحيل . وفى ٢١ ديسمبر ١٧٣٦ غادر سيرى واميلى ، قاصدا بروكسل متنكرا فى زى التاجر ريفول . وسخر المعجبون به هناك من تنكره ومثلوا مسرحية آلزير تكريماً له . وحذر جان بابتست أهل بروكسل من أن فولتير جاء إليهم ليبشر بالإلحاد ، فانتقل إلى ليدن حيث احتشدت الجماهير لرؤيته ، ثم إلى امستردام حيث أشرف على طبع كتابه عن نيوتن ، وساور المركيزة آنذاك الخوف من أنه لن يعود إليها مطلقاً ، فكتبت إلى دار جنتال : « منذ اسبوعين فقط كنت أتعذب لعدم رؤيته لمدة ساعتين اثنتين ، وكنت أكتب إليه من غرفتى إلى غرفته ، ومضى الآن أسبوعان لا أعرف أين هو ولا أعرف ماذا يفعل . . . أنا فى حالة يرثى لها »[٥٥] وأخيراً عاد (مارس ١٧٣٧) وهو يقسم أنه لولا حبه لها لما أقام فى فرنسا التى تلاحقه وتطارده على هذا النحو .

وفى مايو ١٧٣٩ عاد العشيقان إلى بروكسل حيث استخدم فولتير كل مواهبه القانونية وغيرها فى قضية تتعلق بممتلكات المركيزة . ثم قصد هو وزوجها إلى باريس حيث قدم فولتير روايتى محمد وميروب إلى مسرح الكوميدى فرانسيز ، وحيث رأت السيدة شاتيليه فى المطبعة مجلداتها الثلاثة عن « قوانين الفيزياء » وفى هذه الدروس « تهربت من فولتير ونيوتن كليهما مؤثرة عناصر الوجود الأولية فى فلسفة ليبنتز . وفى سبتمبر عادوا إلى سيرى ، ثم قصدوا بعدها إلى بروكسل لاقامة طويلة ، ومنها فى سبتمبر ١٧٤٠ أسرع فولتير إلى كليف Cleves لأول لقاء له مع فردريك ، وكان قد أصبح ملكا ، ورفض أن يدعو إميلى معه . وفى نوفمبر قطع مسافة ١٥٠ ميلا مرهقة قاصداً برلين ليقوم بمهمة دبلوماسية للكاردينال فلرى ، وسنعود إلى تفصيل هذه المهمة فيما بعد . وذهبت اميلى فى نفس الوقت إلى فونتنبلو حيث بذلت جهداً كبيراً فى الحصول على إذن لفولتير بالإقامة فى باريس ، وواضح أن سيرى أصبحت عبئاً لا يطاق . وفى ٢٣ نوفمبر

كتبت إلى دارجنتال : لقد لقيت جزاء صنمار على كل ما فعلت فى فونتنبلو ، لقد ذللت كل العقبات ، وحصلت لفولتير على حق العودة إلى بلده دون قيد أو شرط ، ووفقت بينه وبين الوزارة ، ومهدت الطريق لقبوله فى الأكاديمية ، وصفوة القول أنى فى ثلاثة أسابيع أستطعت أن أعيد إليه كل ما فقده فى ستة أعوام . فهل تعلم كيف كافانى على مثل هذا الاخلاص والغيرة ؟ أنه أبلغنى فى رسالة جافة أنه قصد إلى برلين ، وهو يعلم علم اليقين أنه يحطم قلبى ويعذبنى عذابا لا يوصف ... لقد انتابتنى الحمى . . . وآمل أن أفارق الحياة وشيكا ... وهل تصدق أن الفكرة التى تستبد بعقلى حين أحس بأن الحزن سيقتلنى ، هى فكرة الأمى العميق الذى ينتاب فولتير لموتى ؟... أنى لا أطيق أن أفكر فى أن ذكراى سوف تسبب له يوما الشقاء والألم ، ويجدر بكل الذين أحبوه أن يكفوا عن لومه .

وانتزع فولتير نفسه من جو النفاق الملكى ليلحق بعشيقته ، وفى طريق عودته بعث إلى فردريك برسالة يوضح فيها وجهة نظره فى الموضوع :

« إنى أترك ملكا عظيما يكرم ويشجع فنا أعجب به إلى حد التأليه ، لألحق بسيدة لا تقرأ شيئا إلا ميتا فيزيقا وولف المسيحى (شارح ليبنتز) . أنى أنتزع نفسى من أعظم حاشية أمتاعا وإيناسا فى أوربا من أجل قضية قانونية . أنى لم أترك حاشيتك الفاتنة الجديرة بالحب لأتنهد واتأوه مثل أحمق معتوه بين يدى امرأة ، ولكن هذه المرأة يا مولاى هجرت من أجلى كل شىء ، مما يتخلى سائر النساء عن أصدقائهن من أجله . أننى أسير فضلها فى كل شىء أن الحب غالبا ما يكون سخيفا مضحكا ، ولكن الصداقة الخالصة والود الصافى لهما حقوق يرتبط المرء أكثر مما يرتبط بأوامر الملك [٥٦] .

والتقى ثانية باميلى فى بروكسل التى أصبحت بلدهما الثانى بسبب طول الاجراءات فى قضيتها . وفى مايو ١٧٤١ شهدا العرض الأول لرواية محمد فى ليل ، ولقيا ترحيبا حماسيا . وعادا إلى بروكسل مزهوين مبتهجين ، ولكن عكر صفوهما شعور بأن جذوة الغرام قد بدأت تنطفئ . وكان حبها

لا يزال قويا . ولو أن جوهر هذا الحب كان الرغبة فى التسلط والسيطرة . ولكن شعلة الحب عند فولتير بدأت تتحول إلى قلمه . وفى يولية ١٧٤١ اعتذر لها عن غيرته التى أخذت تذوى وتذبل : « إذا وددت أن أستمر على الحب فعليك أن تعيدى إلى مسافات من زمان الحبيبين ، أعيدى إلى إذا كان فى مقدورك ، فجر الحياة ، وهى فى غسق المساء ، نحن نموت مرتين ، وأنا الحظ هذا جيدا . إنه موت لا يطاق أن نتوقف عن الحب ونحن جديران به ، أما توقف الحياة نفسها فهو أمر تافه لا قيمة له » .

وفى أغسطس ١٧٤٢ قصدا إلى باريس ليشهدا العرض الأول لرواية « محمد » فى المسرح الفرنسى . وكان فولتير قد سعى للحصول على إذن رسمى من الكاردينال فلبرى بتمثيلها ، فأجابه إلى طلبه . وكان هذا العرض الأول (١٩ أغسطس) الحدث الأدبى لذاك العام ، وشهده كثير من الحكام ورجال الدين والشعراء بالإضافة إلى الجمهور الذى اكتظ به المكان . وبدا أن الجميع راضون عن المسرحية باستثناء نفر من رجال الدين الذين زعموا أن الرواية ليست إلا « هجوما عنيفا على المسيحية » وانضم فريرون وديفونتين وغيرهم إلى هذه الشكوى . وعلى الرغم من أن الكاردينال أحس بأن هؤلاء النقاد يسيئون إلى قضيتهم ، فإنه بعث إلى فولتير برسالة سرية ينصحه فيها بسحب الرواية ، وتم هذا بعد العرض الرابع من إقبال شديد على الرواية . وعاد فولتير واميلى أدراجهما إلى بروكسل ، وقد استبد بهما الغضب لخيبة أملهما .

وهل كانت رواية « محمد » هجوما على المسيحية ؟ ليس الأمر إلى هذا الحد . أنها كانت تهاجم التعصب الأعمى والتزمت ولكنها صورت الرسول فى صورة غير ودية ربما أثلجت صدور المسيحين الأبرياء من التاريخ ومن سوء النية فيه . أنه صور الرسول مخادعا تعمد أن يدرس دينه الجديد إلى عقول قوم سذج ويستغل أيمانهم فى استثارة هممهم فى القتال ، ويغزو مكة ، بإصدار أمره إلى نصيره المتعصب سعيد بقتل الشيخ زبير الذى يقاوم هذا الغزو وعند ما يتردد سعيد يؤنبه محمد فى عبارات بدت

لبعض المستمعين وكأنها تعريض برجال الدين المسيحيين ؛ فهو يقول : « وأنت أيضا تتردد ؟ أيها الشباب الحرئ ، إنه لمما يتنافى مع الدين أن تتردد ؛ إن الذين يستخدمون عقولهم لا يميلون إلى الأيمان . بمحمد ، إن عليك ن تمتثل . إن إرادة الله تقضى بذلك . ألا تعلمون أن إبراهيم الخليل ولد هنا وأن جثمانه الطاهر يرقد هنا ، وهو الذى امتثل لصوت الله وأخمد صيحات الطبيعة بين جنبيه ، وتخلى عن ولده العزيز ! ! أن الله العلى القدير نفسه هو الذى يطلب إليكم أن تضحوا ، ويهيب بكم أن تنفروا إلى القتال ، ومن ذا الذى يتجرأ فيتردد فى تنفيذ أمر الله إذا دعاكم إلى القتال ؟ فاضربوا إذن فوق الأعناق . أن دم الشيخ زبير يخولكم النعيم المقيم فى الدار لآخرة [٥٨] (*) .

ويقتل سعيد الشيخ العجوز الذى يتبين وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أن القاتل ابنه . وهذا بطبيعة الحال هجوم من فولتير على استخدام الدين ذريعة لسفك الدماء واشعال نار الحرب . وهذا ما قصد إليه فولتير . وفى رسالة إلى فردريك ضرب أمثلة لجرائم ارتكبت بأسم الدين ، منها قتل وليم أورانج وهنرى الثالث وهنرى الرابع ملكى فرنسا . ولكنه أنكر أن المشرحية هجوم على الدين ، بل أنها دعوة إلى استمساك المسيحيين بمبادىء المسيحية الحقة .

وفى سبتمبر ١٧٤٢ واساه الكردينال فليرى بإيفاده إلى فردريك ليحاول توجيه سياسته إلى الصداقة مع فرنسا . وقصد فولتير مزهوا بدبلوماسيته لزيارة الملك فى آخن . وتبين الملك أهدافه ومراميه ، فرد على حديثه السياسى شعرا ، وأعاد فولتير إلى باريس مع عشيقته أميلى والمسرحية . وفى ٢٠ فبراير ١٧٤٣ أخرجت على الكوميدى فرانسيز أعظم رواياته ميروب حيث لاقت نجاحا أخرس ألسنة أعدائه بعض الوقت .

---

(١) أثبتنا هنا ما ورد فى الأصل الانجليزى من رواية فولتير . وواضح أنه أبعد ما يكون عن جوهر الإسلام وتاريخه الصحيح ومشروعية القتال . ولكنا حوصنا على الأمانة فى النقل . (المترجم)

وكانت عدة مسرحيات قد كتبت بالفعل فى نفس الموضوع ، منها مسرحية يوريبيدس التى لم يبق منها إلا شذرات قليلة وفى خطاب تمهيدى أقر فولتير بالفضل والعرفان لمركيز فرانشسكو مبيون دى ماف (وهو من فيرونا) الذى كان قد أخرج ميروب فى ١٧١٣ . وكانت هذه المسرحيات تتميز بتحول الاهتمام فيها إلى حب الوالدين لا إلى الحب الجنسى ويروون أن معظم الحاضرين سالت دموعهم فى المشهد الأخير . ولأول مرة فى تاريخ المسرح الفرنسى تعالت الأصوات تنادى بظهور المؤلف على خشبة المسرح ، وقيل إنه وافق وبذلك أوجد سابقة أسف لها لسنج أشد الأسف . وطبقاً لبعض المصادر الأخرى يقال أن فولتير رفض الظهور على المسرح على الرغم من حث الدوقتين اللتين جلس فى مقصورتهما ، وكل ما فعله أنه نهض واقفاً فى مكانه لحظة رداً على التحية[٥٩] ، وحكم فردريك بأن هذه المأساة من أحسن ما كتب من مسرحيات[٦٠] . وذهب جيبون إلى أن الفصل الأخير يضارع أى فصل فى مسرحيات راسين[٦١] .

وقلل من قيمة نجاح « ميروب » اخفاق فولتير فى الفوز بمقعد فى الأكاديمية الفرنسية . إنه سعى له سعيا متواصلا إلى حد أنه أعلن نفسه كاثوليكيا حقاً ومؤلف عدة أبحاث أقرتها الكنيسة [٦٢] . وأيده لويس الخامس عشر فى بداية الأمر ولكن وقف فى طريقه وزيره الجديد مورياس الذى احتج بأنه لا يليق أن تشغل نفس شريرة دنسة المقعد الذى خلا بوفاة الكاردينال فلرى . وشغل المقعد أسقف ميربوا . واستحث فردريك فولتير أن يترك البلد الذى لا يلقى فيه عباقرته سوى هذا القدر الضئيل من التكريم ، ويحضر ليقيم معه فى بوتسدام . فاعترضت مدام دى شاتيليه وأشارت عليه الحكومة الفرنسية بقبول الدعوى لبعض الوقت والقيام بعملية التجسس فى برلين . وهفت نفسه إلى الاشتغال بالسياسة ، فقبل الدعوى وقام ثانية بالرحلة المرهقة راكبا عبر فرنسا وبلجيكا وألمانيا ، وقضى فى هذه المغامرة ستة أسابيع (٣٠ أغسطس — ١٢ أكتوبر ١٧٤٣) ومرة أخرى سخر فردرتك من سياسته وامتدح شعره ، وعاد فولتير إلى اميلى

فى بروكسل . وفى أبريل ١٧٤٤ استأنفا مقامهما فى سيرى محاولين بعث غرامهما الميت إلى الحياة من جديد .

وفى «رسالة السعادة» كانت المركيزة ترى أن الرغبة فى المعرفة هى إحدى الرغبات التى تسهم أكبر اسهام فى سعادة الإنسان لأنها تجعلنا أقل اعتمادا بعضنا على بعض ومع ذلك تقول عن الحب : « إنه أعظم الأشياء الطبيعية التى هى فى متناول أيدينا ، وهى الشىء الوحيد الذى نضحى من أجله بلذة الدرس والتحصيل . والمثل الأعلى فى هذا المجال شخصان يفتتن الواحد منهما بالآخر إلى حد لا تفتر معه عواطفهما ولا تصاب بالتخمة أبدا ، ولكن لا يمكن لإنسان أن يأمل فى مثل هذا التآلف والانسجام بين شخصين ، لأن هذا شىء يفوق حد الكمال . فالقلب الأهل لمثل هذا الحب والنفس الوقية بالمحبة إلى هذا الحد يجوز أن تخلق مرة واحدة كل قرن من الزمان (٦٣) .

وفى رسالة مؤثرة لخصت تخليها عن هذا الأمل :

« قضيت عشرة أعوام سعدت فيها بحب الرجل الذى غزا قلبى . وقضيت هذه الأعوام العشرة فى ارتباط وثيق به . . . وعند ما انتقص امتداد العمر والمرض من تعلقه بى لم ألحظ هذا إلا بعد مرور فترة طويلة . إنى أحببته لسببين ، قضيت حياتى كلها معه واستمتع قلبى الواثق بنشوة الحب ، بالإضافة إلى توهمى أننى أيضا جديرة بالحب ، وأفلت من يدى هذا الظرف السعيد (٦٤) .

وماذا حول فولتير من الحب والهيام إلى هذا الوفاء المتقطع ؟ ويبدو أنه كان صادقا فى التذرع باعتلال صحته . ولكنا سنجده فى بحر عام واحد يتأوه ويتنهد كالمعتوه بين يدى امرأة » والحق أنه كان قد استنزف جانبا من حياته واهتمامه — مدام دى شاتيليه والعلم . إن العزلة فى سيرى ربما أورثت السأم والملل بسرعة ذهنا يافعا . ولم تكن نعمة وبركة إلا عند ملاحقة الشرطة له ؛ وعند ما كان يدعوه العلم إلى التفرغ له ، ولكنه كان آنذاك قد تذوق ثانية ملذات باريس ومباهجها ، واستمتع بمشاهدة افتتاح

مسرحياته . بل كان يلعب دورا فى السياسة القومية ؛ وأحس بسحر الحاشية ولو من بعيد . وأصبح صديقه المركيز دارجنسون الوزير الأول ، كما أصبح صديقه ومدينه الدوق دى ريشيليو الأمين الأول للملك . وكان لويس قد رق له ولأن جانبه . وفى ١٧٤٥ كان الدوفين على وشك أن يتزوج من الأميرة الأسبانية ماريا تيريزا رافاييلا ، ولا بد أن تقام احتفالات ضخمة لهذا الغرض ، فكلف ريشيليو فولتير بكتابة مسرحية لهذه المناسبة . وكان على رامو أن يكتب الموسيقى ، فيتعاون الملحن والشاعر فى العمل معا ، وكان لزاما أن يحضر فولتير إلى باريس ، وفى سبتمبر ١٧٤٤ ودع العاشقان سيرى وانتقلا إلى العاصمة .

٤ ـ رجل البلاط : ١٧٤٥ ـ ١٧٥٨

بلغ فولتير آنذاك سن الخمسين . وكان لوقت غير قصير يحتضر فى كل عام مرة . وكتب إلى تييريو فى ١٧٣٥ « من المؤكد أنه ليس أمامى إلا سنوات قليلة أعيشها [٦٥] . وكان قد بلغ آنذاك الحادية والأربعين ، وكان أمامه ثلاث وأربعين سنة أخرى ، فكيف تسنى له هذا ؟ عند ما انتابته علة خطيرة فى شالون فى أعالى المارن (١٧٤٨) ، ووصف له أحد الأطباء بعض الأدوية ، قال فولتير ، كما يروى سكرتيره ، إنه لن يتبع شيئا من هذه التعليمات ، لأنه يعرف كيف يعالج نفسه فى أيام الصحة والمرض على حد سواء ، وسيظل طبيب نفسه كما كان دائما . وفى مثل هذه الأوقات كان فولتير يصوم لبعض الوقت ، ثم يأكل قليلا من الحساء الرقيق والخبز المحمص والشاى الخفيف والشعير والماء . ويستطرد سكرتيره لو نجشامب فيقول : « تلك هى الطريقة التى عالج بها فولتير نفسه فبرىء من سقمة الذى ربما أدى به إلى نتائج خطيرة لو أنه أسلم نفسه إلى أطباء شالون . كان مبدؤه أن صحتنا تتوقف علينا نحن ، وركائزها الثلاث هى القصد فى الطعام والشراب وضبط النفس والاعتدال فى كل شىء ، والتمرينات والرياضية البسيطة ، ففى كل الأمراض التى لا تكون نتيجة لأحداث خطيرة أو تكون لخلل أساسى فى أعضاء الجسم الداخلية ، يكفى أن تساعد الطبيعة التى

تسعى جاهدة فى شفائنا ، وأن نلتزم فى الغذاء بنظام دقيق لفتره طويلة إلى حد ما ، فنتغذى على السوائل المناسبة والأغذية الخفيفة الأخرى . ورأيته دائما يلتزم بهذه القاعدة طيلة وجودى معه(٦٦) .

وكان بارعا مثل رجال المصارف فى إدارة أمواله واستثمارها . وكان مستوردا وشاعرا ومقاولاوكاتبا مسرحيا ورأسماليا وفيلسوفا ومقرضا للنقود وصاحب معاش ووارثا . وساعده صديقه دارحنسون على جمع ثروة من تموين الجيش(٦٧) ، وكان قد ورث جزءا من ثروة أبيه وترك له موت أخيه أرمان (١٧٤٥) دخل بقية أملاك أبيه . وأقرض الدوق ريشيليو ودوق دى فلبار والأمير دى جيز وسيرهم مبالغ كبيرة ، ووجد عناء كبيرا فى استرداد الديون ، ولكنه عوض عنها بالأرباح (٦٨). وفى ١٧٣٥ كان ريشيليو مدينا له بمبلغ ٤١٧ ر٤٦ من الجنيهات دفع عنه الدوق أرباحا سنوية قدرها ٤٠٠٠ (٦٩) جنيه « وفى حالة مسيودى بريزى غير الموثوق به كان فولتير يطلب فائدة قدرها ١٠ ٪ ، واستثمر فولتير أكثر أمواله فى سندات مدينة باريس التى تدر ربحا قدره ٥ ٪ أو ٦ ٪ ، وكثيرا ما أعطى تعليماته إلى وكيله للالحاح على مدينيه بالسداد : « أنه من الضرورى يا صديقى أن تطالب مرة ومرتين وتلح وتراقب وتلحف فى الطلب — ولكن لا تعذب المدينين من أجل إيرادى السنوى ومتأخراتى (٧٠) وفى ١٩٧٩ قدر سكرتير فولتير أن دخله السنوى بلغ ٨٠ ألف جنيه(٧١) . ولم يكن فولتير ينبش الأرض بحثا عن المال ، ولم يكن بخيلا مقترا ، وكثيرا ما منح الأموال وقدم سائر المساعدات لشباب الطلبة ومد يد المعونة قولا أو فعلا إلى فوفينارج ومارمونتل ولا هارب . وقد رأيناه يتنازل عن عائدات رواياته للممثلين ، وعند ما ضاع عليه أربعون ألف جنيه بسبب افلاس ملتزم عام كان قد أقرضه المبلغ واجه الأمر فى هدوء ، ولم يثر أو يغضب . وذكر العبارات التى تعلمها فى صغره «أعطانا الله ، وأخذ الله فليتقدس اسم الله » .

ولو أن فولتير أوتى مالا أقل ليستغله ويعنى به ، وكان أكثر بدانة أو اكتنازا لحما أكثر فوق عظامه ، فلربما كان أقل حساسية وعصبية وأقل نزقا

وانفعالا . وكان كريما حذرا حريصا على مشاعر الناس وحقوقهم . وكان عادة مرحا ودودا طلق المحيا مفعماً بالحيوية والنشاط ، وكان أهلا للصداقة الحميمة الوثيقة . وما أسرع ما كان يغتفر أية اساءة لا تجرح كبرياءه ، ولكنه لم يكن يحتمل فى صبر أى نقد أو عمل عدائى (وكان يقول أنى أحسد الحيوانات على شيئين ، جهلها بما قد ينتابها من مصائب بما يقال عنها[٧٢]) وأثار ذكاؤه الحاد حفيظة كثير من الأعداء ، فحمل عليه فريرون وبيرون وديفونتين وهاجموا آراءه فى عنف أشد من عنف رجال الدين فى مهاجمته . ولسوف نسمع منهم شيئا فشيئا . ورد عليهم فولتير الضربات بمثلها على الرغم من نصح مدام شاتيليه له بالتزام الصمت ، ووجه إليهم أقذع السباب والشتائم ، وجند أصدقاءه لشن الحملات عليهم . وكم وجدت المركيزه مشقة فى منعه من الذهاب إلى باريس ليعنف ديفونتين أو يتحداه ، بل أنه فكر فى مناشدة الرقابة أن يحظر نشر ما يكتبه ألد أعدائه . لقد كان فى فولتير كل شوائب مناقبة ومزيد من الشوائب .

ووجد فولتير فى رامو (الموسيقار) شخصا نزقا مزهوا سريع الغضب مثله . وكان تعاونهما فى العمل امتحانا قاسيا لكل منهما ؛ ولكن أخيرا اكتمل نص الأوبرا والموسيقى وقام الممثلون والموسيقيون بعمل تجربة للرواية . و٠ ٢٣ فبراير ١٧٣٥ عُرضت « أميرة نافار » — ولقيت ما كان مقدرا لها من نجاح . وبعد ذلك بشهر خصصت لفولتير حجرة فى فرساى تقارب ما وصفه فى رسائله الخاصة بأنها « أقذر حجره فى فرساى » وتبوأت مركيزة شاتيليه من جديد فى الحاشية مكانها الذى كانت قد ضحت به من أجل فولتير . وحصلت آنذاك على الامتياز المذهل وهو الجلوس فى حضرة الملكة . وكان فى صعود نجم مدام دى بمبادور تدعيم لمركز فولتير فقد تعرف عليها حين كانت مدام دتوال ، وزارها فى دارها ، وكتب فى مديحها شعرا تافها ، وبناء على الحاح منها عينه الملك (أول ابريل) مؤرخ الملك براتب قدره ألفى جنيه فى العام .

وسرعان ما اقتضت الظروف أن يثبت جدارته ووجوده ؛ ذلك أنه فى ١١ مايو ١٧٤٥ هزم الفرنسيون الانجليز فى فونتنوى فطلب دار جنسون قصيدة

غنائية تخلد هذا الانتصار . ونظم فولتير ٣٥٠ بيتا من الشعر فى ثلاثة أيام طبعت خمس طبعات على مدى أسبوعين . وأحب الملك فولتير الفترة وجيزة، وأصبح فولتير شاعر حرب . وزيادة فى تخليد ذكرى النصر كلف فولتير ورامو باعداد أوبرا المهرجان . وأبرزت أوبرا « معبد المجد العظيم » أى تراجان — أى لويس الخامس عشر — عائدا من المعركة ظافرا منتصرا ، وخصص لفولتير فى تلك الأمسية مكان على مائدة الملك، وأكلا معا طعاما شهيا ، ولكن فولتير سأل ريشيليو فى لهفة : هل تراجان راض ؟ ولكن الملك سمعه مصادفة ورأى أنه وقــح جرىء بعض الشىء فلم ينبس إليه ببنت شفه .

وثمل فولتير بمزيــج من الشهرة والانتساب إلى الحاشية الملــكية ، فبدأ حملة جديدة للانضمام إلى مجمع الخالدين (الأكاديمية الفرنسية) ولم يأل أى جهد فى تحقيق مأربه . وفى ١٧ أغسطس ١٧٤٥ أرسل نسخة من رواية « محمد » إلى البابا بندكت الرابع عشر ، يسأله أن يهديها إليه : وفى ١٩ سبتمبر رد البابا اللطيف : سعدت الليلة الماضية بروايتك « محمد » التى قرأتها بشغف وسرور عظيم . وإنى لأقدر مواهبك أكبر التقدير ، وهذا أمر يعترف به الجميــع ... وأنى لأكبر كل الأكبار نبلك واخلاصك ... وإنى هنا أمنحك بركتى الرسولية [٧٣] » .

واغتبط فولتير بهذا الوسام أيما اغتباط حتى أنه كتب إلى البابا تقديرا حارا ختمه بقوله : بكل اجلال وتقدير واحترام أقبل قدميك المقدستين [٧٤] وأعلن إلى باريس تمسكه بالمذهب الكاثوليكى وإعجابه باليسوعيين ، وأطنب فى مدائحه لمدام بمبادور والملك . وتوسلت بمبادور إلى الملك وقبل الملك رجاءها . وأخيرا فى ٩ مايو ١٧٤٦ وافقت الأكاديمية على انضمام أمير الشعراء فى هذا العصر والــكتاب المسرحيين فيه إليها . وزيادة فى تكريمه وتدعيم مركزه عين فى ٢٢ ديسمبر موظفا فى الحاشية الملكية مخصصا للقيام على شئون الملك .

وربما تسنى له فى أيام النجاح والعيش الرغيد هـذه أن يكتب رواية « بابوك أو الدنيا كما هى » وبابوك رجل من سكيزيا (إقليم قديم فى جنوب شرقى أوربا وجنوب غربى آسيا) يجول ليرى الدنيا ، وبخاصة كيف تسير الأمور فى فارس (أى فرنسا) وأصابه الذهول والفزع لما رأى من الحروب والفساد السياسى وشراء الوظائف وجباية الضرائب وثراء رجال الدين . ولكن ترحب به سيدة (مدام دى بمبادور) استمالته جمالها وثقافتها وكياستها إلى « المدنية » ويرى بابوك هنا وهناك بعض مظاهر الكرم ونماذج للأمانة . ثم يزور رئيس الوزراء (تذكيرا بالكاردينال فليرى) ويجده يعمل جاهدا لانقاذ فارس من الفوضى والهزائم ، ويخلص إلى أن الأمور تسير سيرا حسنا بقدر ما تسمح به الظروف الراهنة للطبيعة البشرية للتعليم ، وأن الدنيا بوضعها الحاضر لا تستحق التدمير بعد ، وأن الاصلاح خير من الثورة ، أما بالنسبة لشخصه هو على أية حال فإنه سيقلد الحكماء الحقيقيين الذين يعيشون بينهم وبين أنفسهم فى عزلة وهدوء(٧٥) . فهل شعر بالوحشة والشوق إلى سيرى فعلا ؟

إنه على أية حال لم يكن لائقاً ليعمل فى البلاط . فإنه بطريقة تعوزها اللباقة إلى حد لا يصدق احتفل بانتصار الفرنسيين فى برجن آوب زوم بقصيدة صور فيها الملك لويس الخامس عشر طائراً من ميدان المعركة إلى أحضان بمبادور ، وعهد إليهما معا بمهمة الاحتفاظ بالفتوحات واستبد الغضب بالملكة وبأبنائها ، واستنكر نصف أفراد البلاط وقاحة الشاعر ، وفى الوقت عينه كانت دى شاتيليه قد انغمست فى لعب الميسر ، وفى ليلة واحدة خسرت ٨٤ ألف فرنك ، وأنذرها فولتير بالإنجليزية وهو واقف إلى جوارها بأنها تغش فى اللعب . وفهم بعض اللاعبين ذلك واحتجوا وترامت أنباء هـذه الصراحة المخزية إلى أفراد الحاشية ، فلم تترك للشاعر صديقاً فى فرساى أو فونتنبلو ، وهرب فولتير واميلى إلى سكو (١٧٤٧) ليقيما لدى الدوقة دى مين التى ما زالت على قيد الحياة ، وهناك بقى لمدة شهرين فى جناح منفرد (منعزل) بعيد عن أنظار الناس ، وهناك حاول أن ينسى ورطته

ومحنته بالانصراف إلى كتابة بعض القصص الرومانسية المرحة التى ساعدت على أن تجعل منه أعظم المؤلفين شعبية فى الأدب الفرنسى . وواضح أنه قرأها ذات يوم على الضيوف المقربين الذين تألفت منهم حاشية الدوقة الخاصة . ومن هنا كان إيجاز هذه القصص وما فيها من هجاء مرح وسخرية لطيفة .

وأطول هذه القصص التى كتبت فيما بين عامى ١٧٤٦ ، ١٧٥٠ هى « زاديج أو سر القدر » وزاديج شاب بابلى لطيف غنى تلقى أحسن تعليم ، عاقل قدر ما يمكن أن يكون الإنسان عاقلا واسع الاطلاع على علوم قدامى الكلديين ، فهم أصول ومبادئ الفلسفة الطبيعية ، وعرف من الميتافيزيقا ما يمكن أن يعرف فى أى عصر ، أى القليل منها أو لا شىء على الاطلاق(٧٦) . وكان على وشك أن يتزوج من سمينا الجميلة حين هاجمه بعض قطاع الطرق ، وأصابوه بجرح تحول إلى خراج فى عينه اليسرى ، واستدعى هرمز الطبيب المشهور من ممفيس وفحص الجرح ، ثم أعلن أن زاديج لا بد أن يفقد عينه ، ولو أنه فى العين اليمنى لأمكن علاجه بسهوله ، ولكن الجروح فى العين اليسرى غير قابلة للشفاء . وأعلنت سمينا أنها تنفر نفورا لا سبيل إلى مقاومته من الرجال ذوى العين الواحدة ، ومن ثم هجرت زاديج وتزوجت من غريمه . وفى ظرف يومين التأم الجرح من تلقاء نفسه وشفيت العين تماما ، ويؤلف الطبيب هرمز كتابا يثبت فيه أن هذا مستحيل ، ويدخل زاديج السرور على قلب الملك موابدار بنصائحه الغالية ، وعلى قلب الملكة آستارت بنظراته الحانية فتقع فى شراك غرامه ، ويهرب زاديج إلى مدينة نائية . وفى الطريق يرى رجلا يضرب امرأة ، ويستجيب فى شجاعة لصرخاتها طلبا للمساعدة ، فيتدخل بينهما ويهاجمه الرجل بعنف ولكنه يرد به قتيلا . وتسبه المرأة بألفاظ جارحة لأنه قتل عشيقها . ويمضى زاديج فى طريقه ويؤخذ ويباع بيع الرقيق . عندئذ تصور زاديج « الناس كما هم فى حقيقة أمرهم . . . . . حشرات يفتك بعضها ببعض من أجل قطرة من طين » .

وقصص « ممنون الفيلسوف » حكاية رجل اعتنق يوما الفكرة الجنونية بأنه متعقل كل التعقل ولكنه وجد نفسه قاصرا قصورا يائسا عاجزا يواجه مئات الكوارث ، فيقرر أن الأرض مستشفى كبير للأمراض العقلية تقوم الكواكب الأخرى بترحيل المجانين فيها إليه [٧٧] .

أما رحلات سكارمنتادو فهى تطوف بشاب من كريت من بلد إلى بلد حيث يتكشف له فى كل يوم مشاهد جديدة من التعصب أو الخداع أو القسوة أو الجهل . ففى فرنسا تجتاح الحروب الدينية المقاطعات ، وفى إنجلترا تحرق الملكة مارى خمسمائة من البروتستانت ، وفى اسبانيا ينشق الشعب فى لذة رائحة المهرطقين الذين ألقى بهم فى النار ، وفى تركيا ينجو سكارمتادو من الختان بأعجوبة ، وفى فارس يتورط فى الصراع بين طائفتى السنة والشيعة من المسلمين ، وفى الصين يتهمه اليسوعيون بأنه شخصية بارزة من طائفة الدومنيكان ، وأخيرا يعود إلى كريت « ومذ رأيت الآن كل ما هو نادر أو خير أو جميل على الأرض ، فقد وطدت العزم على ألا أرى فى المستقبل شيئاً غير بلدى ، وتزوجت وسرعان ما داخلنى الشك فى خيانة زوجتى ، ولكنى على الرغم من هذا الشك وجدت أن هذه هى أسعد ظروف الحياة[٧٨] »

وتوسع ميكرو ميجاس فى أفكار النسبية التى استخدمها سويفت فى رحلات جليفر . والسيد ميكروميجاس رجل يصلح للاقامة فى نجم الشعرى اليمانية ، وطوله ١٢٠ ألف قدم وعرض صدره خمسون ألفا ، وطول أنفه ٦,٣٣٣ قدما . وعند ما بلغ ٦٧٠ عاما من العمر ذهب ليستزيد من التعليم . وبينما هو يحوم فى الفضاء هبط على كوكب زحل فسخر من الأقزام هناك ، حيث بلغ طول الناس هناك ستة آلاف قدم أو نحوها ، وتعجب كيف يتسنى لسكان زحل المعدمين هؤلاء الذين ليس لهم إلا ٧٢ حاسة فقط أن يعرفوا الحقيقة وسأل أحد السكان إلى أى حد من العمر تعيشون ؟ فصاح ساكن زحل واحسرتاه ! قليل جداً منا يعيشون لأكثر من ٥٠٠ دورة حول الشمس (وهى بحسابنا نحن تصل إلى نحو ١٥ ألف سنة) وهكذا ترى أننا بشكل ما نموت فى اللحظة التى نولد فيها . . . . وما أقل ما نتعلمه

حين ينزل بنا الموت قبل أن نستفيد من خبرتنا(٧٩) . ويدعو ساكن الشعرى اليمانية ساكن زحل إلى مصاحبته لزيارة كواكب أخرى ، فتتعثر أقدامهما على كوكب الأرض ، وتبتل قدما ساكن الشعرى ، ويكاد ساكن زحل يغرق وهما يسيران فوق البحر المتوسط . فلما وصلا إلى البر رأيا حشودا من الأهالى صغار الأجسام يتمركزون هنا وهناك فى اهتياج شـــديد ، وعند ما يتضح لساكن الشعرى اليمانية أن مائة ألف من سكان الأرض هؤلاء يلبسون القبعات وعددا مساويا يضعون العمائم ، يقتلون ويطيح بعضهم برؤوس بعض فى صراع (الحروب الصليبية) حول ركام من التراب (فلسطين) لا يكاد يعلو على عقبيه يصيح ساخطا . مستاءا : أيها الكفار الأوغاد . . . قلبى يحدثنى أن أتقدم خطوتين أو ثلاثا لأسحق تحت قدمى وكر السفاحين الحمقى بأسره (٨٠) .

وكل هذا كان عاما سارا بهيجا ، وكان يمكن أن يمر دون أن يحرك أحد ساكنا . ولـكن فولتير فى ١٧٤٨ عكر صفو باريس بنشرة صغيرة « صوت الحكماء وصوت الشعب » هاجم فيها كنيسة فرنسا فى نقطة حساسة ، تلك هى « أملاك الـكنيسة فى فرنسا » ، حيث ينمو العقل ويتطور يوما بعد يوم ، فإن العقل يعلمنا انه يجدر بالـكنيسة أن تسهم فى نفقات الأمة بنسبة مواردها ، وأن الهيئة التى نصبت نفسها لتلقين مبادىء العدالة يجدر بها أن تبدأ بنفسها لتكون قدوة للعدالة ونموذجا لها ورغم أن الأديار تضيع أقوات الشعب وموارد الأرض فى خمول عقيم ، واتهم « الخزافة » بقتل الحـكام واراقة بحور من الدماء فى الاضطهادات والحروب ، وذكر الملوك بأن أحدا من الفلاسفة لم تمتد يده على مليكه ، وإذا اتحد الملوك مع العقل وجردوا أنفسهم من الخرافة فـكم يكون الناس أسعد وأهنأ بالا (٨١) . وقل أن أثارت رسالة موجزة مثل هذه العاصفة الهوجاء . ونشرت خمس عشرة رسالة مضادة للرد على رسالة « صوت الحـكماء وصوت الشعب » التى لم يذكر اسم مؤلفها .

وأثناء إقامة فولتير فى فصل الشتاء فى سكو سددت مدام دى شاتيليه

ديون القمار ، وهدأت من روع الرابحين ، وخففت من استيائهم لما نعتهم به فولتير ، وأعادته إلى باريس حيث أشرف على نشر قصصه الصغيرة ، ووجد من الحكمة على الرغم من المشقة والتعب أن يلبى دعوة ستانسلاس لزكزنسكى لزيارة بلاطه فى لونفيل — على بعد نحو ١٨ ميلا من نانسى عاصمة اللورين . وبعد رحلة مرهقة وصل الحبيبان إلى لونفيل (١٧٤٨) ولكن بعد أسبوعين وصل كتاب من دارجنتال ينبئ فيه فولتير بأن ممثلى الكوميدى فرانسيز على استعداد لتجربة روايته سميراميس ، وأنهم فى حاجة إليه لمعاونتهم فى تفسير أبياتها . وكانت هذه الرواية تعنى الشىء الكثير لديه ، وكانت بمبادور من طيبة نفسها الآثمة قد أعادت إلى المسرح كربيون (الأب) الفقير المعدم وهيأت له سبل النجاح . وكان مارينو قد نجاسرفا عتبر مسروحيات الشيخ الهرم أعلى مرتبة من مسرحيات فولتير . وكان الشاعر النحيل الجسم قد اعتزم أن يثبت تفوقه بكتابة روايات فى نفس الموضوعات التى كان كربيون قد طرقها . ومن ثم أسرع فولتير إلى باريس تاركا اميلى فى حرية مهلكة فى لونفيل . وفى ٢٩ أغسطس ١٧٤٨ عرضت سميراميس لأول مرة عرضا ناجحا . وبعد العرض الثانى أسرع متنكراً إلى مقهى بروكوب واستمع إلى تعليقات من شهدو المسرحية . وكانت ثمة تعليقات امتدحت الرواية وأطرتها ، تقبلها فولتير على أنها من حقه ، وثمة آراء أخرى انتقصت من قدرها وهاجمتها . وقد آلمته هذه أيما ايلام ، حيث كان عليه أن يحتملها صامتا ، ولكنه استفاد مما وجه إلى المسرحية من نقد ، فنقحها واستمر عرضها طويلا ؛ وهى تعد الآن من أحسن مسرحياته .

وأسرع ثانية فى جو سبتمبر العاصف عبر فرنسا إلى لونفيل ، وكاد يموت فى الطريق عند شالون ، ولما استحثه فردريك الأكبر على المضى إلى بوتسدام اعتذر بأن المرض أفقده نصف سمعه وعدة أسنان من أسنانه ؛ إلى حد أنه لن يكون إلا مجرد هيكل فى برلين . فأجاب « تعال بلا أسنان وبلا أذنين ، إذا لم يكن بد من الحضور على هذه الصورة ، ما دام أن هذا الشىء الذى يتعذر تعريفه ، والذى يمكنك من التفكير ، والذى يوحى بكل ما جميل ، سيحضر معك » (٨٢) ولكن فولتير آثر المقام مع إميلى .

٥ — موت الحبيبـــة

أحب الملك الصالح ستانيسلاس الأدب ، وكان قد قرأ فولتير وأصابته عدوى عصر الاستنارة ، وفى ١٧٤٩ كان الملك بصدد نشر بيانه « الفيلسوف المسيحى » الذى كانت ابنته ملكة فرنسا قد قرأته فى استياء حزين . وحذرته من أن آراءه يشتم منها أنها نابعة من آراء فولتير إلى حد كبير . ولكن الشيخ الهرم استساغ آراء فولتير كما أعجب بذكائه . وكما أنه كان له أيضا محظية (هى المركيزة دى بوفلرز) فإنه لم يجـــد تناقضا فى أن يتخذ من الشاعر محظيا له فى بلاطه . كما عين ـ فوق ذلك ، زوج اميلى المتحرر الواسع الأفق كبير مديرى قصره براتب قدره ألفا كراون سنويا .

وكان ثمة موظف أخر فى بلاط ستانيسلاس ، هو المركيز جان فرنسوا دى سانت لامبرت ، قائد الحرس : وكانت مدام دى شاتيليه قد التقت به لأول مرة فى ١٧٤٧ ، وكان هو فى الحادية والثلاثين وهى « فى الحادية والأربعين . وكانت تلك فتن خطيرة لامرأة لم يعد عشيقها إلا مجرد صديق حميم . وفى ربيع ١٧٤٨ بدأت تكتب للضابط الوسيم رسائل غرام تكاد تتسم بحماسة البنات الصغيرات وخلاعتهن : « تعال إلى بمجرد أن ترتدى ملابسك » سأطير إليك بعد أن أتناول العشاء . « وأستجاب سانت لامبرت مغازلا مترددا . وذات مرة فى أكتوبر فاجأهما فولتير فى خلوة مظلمة يتبادلان أحاديث الحب والهيام . إن أعظم الفلاسفة هو وحده الذى يتقبل هذه الفعلة النكراء ، الخيانة ، فى هدوء وتسامح . ولم يتر فولتير لهذا الوضع على الفور ، وأنبهما فى شىء من الهذر والمزاج ، ولكنه أوى إلى غرفته حين عرض سانت لامبرت تسوية الأمر معه — أى يقتله عند الفجر . وقصدت اميلى إلى فولتير فى الثانية صباحا ، وأكدت له حبها الخالد ، ولكنها ذكرته فى رفق « بأنك لزمن طويل شكوت . . . من قواك أن تنهار . . . فهل يسئ إليك أن يحل أحد أصدقائك محلك ؟ » وعانقته ولاطفته ودللته بأسماء الدلال التى كانت تناديه بها ، فخفت سورة غضبه وقال « آه أنت على حق دائماً ياسيدتى . ولكن طالما كان لزاما أن تجرى الأمور على هذا النحو فلا

أقل من ألا تجرى تحت سمعى وبصرى » وفى الليلة التالية قصد سانت لامبرت إلى فولتير واعتذر له عن تحديه . وعانقه فولتير وقال له « أى بنى ، لقد نسيت كل شىء . إنى أنا المخطئ ، أنت فى زهرة عمر الشباب والحب والمتعة ، فاستمتع بهذه اللحظات ، فانها قصيرة . إن هذا العاجز المريض مثلى لا يصلح لهذه الملذات » وفى الليلة التاليـــة تناول ثلاثتهم العشاء معا(٨٣) .

واستمر هذا الثلاثى « حتى ديسمبر حين اعتزمت السيدة دى شاتيليه الذهاب إلى سرى لتدبير شؤونها المالية . وصحبها فولتير ، وجدد فردريك دعوته . وكان فولتير يميل الآن إلى تلبيتها . ولكن المركيزة فور وصولها إلى سيرى أسرت إليه بأنها حامل ، وأنها فى مثل هذه السن وكانت أنذاك فى الثالثة والأربعين ، لا تتوقع أن تعيش بعد الولادة . وكتب فولتير إلى الملك فردرياك ألا ينتظر قدومه . كما طلب إلى سانت لامبرت أن يحضر إلى سيرى . وهناك اتفق العشاق الثلاثة على خطة لتأمين شرعية الطفل . واستحثت السيدة زوجها على القدوم إلى سيرى للتعجيل بانجاز بعض المهام . ولم ينزعج الزوج لوجود عاشقين آخرين إلى جانب زوجته يكملان شخصه ، بل سعد كل السعادة حين استقبلوه بالترحيب وأكرموا وفادته . وازدانت المركيزة بأبهى زينة وأزهى حلة ، ولاطفته أعظم ملاطفة ، وشرب وثمل حتى كان ما كان (ممـــا لست أذكره) وبعد بضعة أسابيع أبلغته أنها قد ظهرت عليها أعراض الحمل . واحتضنها فى زهو وفرح . وأعلن عن الحادث السعيد المرتقب إلى كل الناس ، وتقدم إليه الجميع بالتهنئة . ولكن فولتير وسانت لامبرت أتفقا على « أن يعد الطفل من بين أعمال مدام شاتيليه المتنوعة » (٨٤) وعاد المركيز (الزوج) وسانت لامبرت إلى عملهما .

وفى فبراير ١٧٤٩ عادت اميلى وفولتير إلى باريس وانصرفت هى إلى ترجمة قوانين نيوتن بمعاونة كليرو . وثمة رسالتان إلى سانت لامبرت (١٨ ، ٢٠ مايو) تكشفان عن شخصيتها : « كلا : إنه ليس فى مقدورى أن أعبر عن تقديسى وحبى لك حب عبادة . لا تلمنى على نيوتن ، ويكفينى

عذابى بسببه . وما ضحيت قط بشىء قدر تضحيتى للعقل ببقائى هنا لانجازه . . أنا استيقظ فى التاسعة . وأحيانا فى الثامنة صباحا . وأتناول القهوة ، واستأنف العمل فى الرابعة ، وأتوقف عنه فى العاشرة . . . وأتجاذب أطراف الحديث مع فولتير حتى منتصف الليل وهو يتناول معى العشاء . وفى منتصف الليل أعود إلى العمل فى نيوتن واستمر حتى الخامسة صباحا . إنى أنجز هذا الكتاب من أجل العقل والشرف ولكنى أحبك أنت وحدك » (٨٥) .

وفى ١٠ يونيه جدد فردريك بسرعة دعوة فولتير إلى الحضور إلى بوتسدام ظناً من الملك أن سانت لامبرت قد أعفى فولتير من أية مسئوليات أخرى يلتزم بها تجاه دى شاتيليه ، فأجاب فولتير « حتى فردريك الأكبر نفسه لا يستطيع أن يحول بينى وبين القيام بواجب لا يمكن أن يحلنى منه أى شىء . . . لن أتخلى عن سيدة قد تعاجلها المنية فى سبتمبر . والأرجح أن عملية الوضع ستكون خطيرة جداً عليها ، ولكن إذا كتبت لها النجاة ، فإنى أعدك يا مولاى أى أحضر فى أكتوبر وأقدم ولائى لجلالتكم (٨٦) » .

وفى يوليه صحبها إلى لونفيل لتكون تحت رعاية طبية خاصة . إن خوف الموت أزعجها كل الازعاج — يختطفها الموت فى الوقت الذى وجدت فيه الحب من جديد ، وفى الوقت الذى كانت فيه سنى دراستها وبحثها على وشك أن تتوج بنشر كتابها . وفى ١٠ سبتمبر أنجبت طفلة . وفى اليوم العاشر من سبتمبر فارقت الحياة بعد أن عانت كثيراً . واستبد الحزن والأسى بفولتير فزلت قدمه وهو يغادر غرفتها وسقط على الأرض ، وظل فاقد الوعى فترة من الوقت . وساعده سانت لامبرت على الافاقة من غشيته . وقال فولتير عندئذ : « آه يا صديقى أنت الذى قتلتها . . . . يا إلهى ! ما الذى أغراك بأن تصل بها إلى هذه الحالة ؟ ! » وبعد ذلك بثلاثة أيام طلب فولتير من لونجشامب الخاتم الذى خلعوه من يد السيدة المتوفاة . وكانت صورته منقوشة عليه يوما ماووجده السكرتير فى يد لامبرت ، وتعجب فولتير قائلا : « هكذا النساء . لقد خلعت صورة ريشيليو من هذا الخاتم ، ثم جاء سانت لامبرت فطردنى . . . هذا هو نظام الطبيعة . . شخص ينتزع مكان آخر .

وهكذا تسير الأمور فى هذه الدنيا[٨٧] » . ووريت مدام دى شاتيليه التراب فى لونفيل فى أروع مظاهر المهابة والجلال فى بلاط ستانسلاس ، وسرعان ما تبعتها طفلتها .

وعاد المركيز وفولتير إلى سيرى ومن هناك رد على بعض رسائل التعزية التى تلقاها من باريس : « أنتم عزائى ، يا ملائكة الرحمة أنتم تجعلوننى أحب بقية أيامى التعسة . إننى أعترف لكم أن البيت الذى أظلها على الرغم مما يثير فى نفسى من أشجان ، ليس كريها عندى . . . أنا لا أهرب من أى شىء يحدثنى عنها ويذكرنى بها . إنى أحب سيرى . . . والأماكن التى زانتها عزيزة على أنا لم أفقد سيدة ، بل فقدت نصف نفسى . فقدت نفسا خلقت لها نفسى ، فقدت صديقة عشرين عاما ، عرفتها فى طفولتها . إن أكثر الآباء عطفا وحنانا لا يحب ابنته الوحيدة إلا كما أحببت أنا هذه السيدة . وبودى أن أجد فى كل مكان ما يذكرنى بها . وأحب أن أتحدث مع زوجها ومع ابنها[٨٨] .

ومع ذلك أدرك فولتير أنه سيذبل ويذوى إذا هو بقى مترملا فى سيرى الموحشة المنعزلة . وأرسل كتبه وأجهزته العلمية ومجموعته الفنيـــة إلى باريس ، وسافر فى أثرها فى ٢٥ سبتمبر ١٧٤٩ . وفى ١٢ أكتوبر استقر به المقام فى العيصمة ، فى قصر واسع الأرجاء فى شارع ترافرسبير .

٦ — مدام دنيس

كان من اليسير على فولتير أن يقنع ابنة اخته بالحضور لتكون ربة البيت حيث كانت لفترة من الوقت خليلته .

ولدت مارى لويز مجنو Mignot (١٧١٢) وهى ابنة كاترين أخت فولتير . وعندما توفيت كاترين (١٧٢٦) تكفل فولتير برعاية أولادها . وفى ١٧٣٧ ، عندما بلغت مارى السادسة والعشرين ، دفع لهـــا خالها صداقا محترما حيث تزوجت من الكابتن نقولا شارل دنيس ، وكان موظفا صغيراً فى الحكومة .

وتوفى الزوج بعد ست سنوات من زواجه . فى نفس الوقت الذى انتقل فيه فولتير والمركيزة دى شاتيليه إلى باريس . والتمست الأرملة بعض السلوى والعزاء بين ذراعى فولتير ، ووجد هو بعض الحرارة والدفء بين ذراعيها . وواضح أن حب الخال سرعان ما تحول إلى شىء غير مشروع . وفى رسالة مؤرخة فى ٢٣ مارس ١٧٤٥ خاطب فولتير ابنة أخته بقوله « محبوبتى ، عزيزتى »[٨٩](*) وقد تكون هذه عبارة حب بريئة ، ولكن فى ديسمبر ، أى قبل عامين من لقاء المركيزة بسانت لامبرت كتب فولتير إلى الأرمله الطروب رسالة يجدر اقتباسها حرفيا حتى يمكن تصديقها : « اقبلك ألف قبلة . روحى تقبل روحك ، إن قلبى مفتون بك . أقبل كل شىء فيك »[٩٠] .

وحذفت مدام دنيس بعض الألفاظ تواضعا وخجلا ، ولكن المفروض أنها أجابت برسالة غرامية ، لأن فولتير كتب لها من فرساى فى ٢٧ ديسمبر ١٧٤٥ : « عزيزتى ، تقولين إن كتابى إليك بعث السرور والنشوة حتى فى حواسك كلها . وأنا مثلك تماما . فلم أكد أقرأ العبارات الممتعة التى جاءت فى كتابك حتى التهبت مشاعرى من الأعماق . وأوليت كتابك كل الإجلال الذى أحب أن أوليه لشخصك كله ، سأحبك حتى الممات »[٩٢] . وفى ثلاث رسائل بعث بها إليها فى ١٧٤٦ « إنى أقبلك ألف قبلة »[٩٣] . بودى أن أعيش عند قدميك وأموت بين ذراعيك . .[٩٤] « متى يكون فى مقدورى أن أعيش إلى جوارك وينسانى العالم بأسره ؟ »[٩٥] وفى ٢٧

(*) هذه العبارة والمقتطفات التالية مأخوذة عن رسائل خطية اكتشفها تيودور بسترمان فى ١٩٥٧ ، واشترتها مكتبة بيربونت مورجان فى نيويورك من أعقاب السيدة دنيس . ونشر الدكتور بسترمان ، مدير معهد ومتحف فولتير فى لى دليس فى جنيف ، النص الأصلى ، مع ترجمة فرنسية تحت عنوان « رسائل غرامية من فولتير إلى ابنه أخته (باريس ١٩٥٧) وترجمة انجليزية (لندن ١٩٥٨) . وكل الرسائل ، فيما عدا أربعا من بين ١٤٢ رسالة بخط فولتير ، وبعضها مكتوب بالايطالية التى كالت مدام دنيس ملمة بها . وكتبت هذه الرسائل فيما بين عامى ١٧٤٢ — ١٧٤٥ . وثلاث منها مؤرخة على وجه التحديد . ومن ثم لا يمكن أن يكون تسلسلها التاريخى مؤكدا . والتواريخ التى أوردناها هنا هى التى حددها دكتور بسترمان .

يوليه ١٧٤٨ كتب يقول : « سأحضر إلى باريس من أجلك أنت إذا سمحت ظروفى السيئة . وسألقى بنفسى عند قدميك ، وأقبل كل مفاتنك . وفى نفس الوقت أطبع ألف قبلة على كل موضع فى جسمك الذى غمرنى بفيض من اللذة والبهجة » (٩٧) .

فى عمر الرجال ، مثلما هو فى عمر النساء ، فترة خطيرة ، وهى عندهم أطول ، ويرتكبون فيها حماقات لا تصدق . وكان فولتير ألمع شخصية فى القرن الذى عاش فيه ، ولكن لا يجدر بنا أن نعده من بين الفضلاء الحكماء ، فكثيراً ما اقترف هذه السخافات والأعمال الطائشة وتردى فى هذه التصرفات المتطرفة ونوبات الغضب الصبيانية ، مما سر أعداءه وأزعج أصدقاءه . إنه وضع نفسه تحت رحمة ابنة أخته التى كان واضحا أنها مغرمة به ، ولكنها أحبت نقوده حبا متزايدا . إننا نجدها تستغل سيطرتها عليه لتزيد من ثروتها ، حتى يوم وفاته . إنها لم تكن امرأة رديئة بمقاييس العصر . ولكنها ربما جاوزت حدود عمرها باتخاذها سلسلة من العشاق — باكولار دارنو ، مارمونتيل ، مركيز دى اكسيمين — لتستكمل رعاية خالها . (٩٨) ووصفها مارمونتيل مادحا فى ١٧٤٧ « إن هذه السيدة مقبولة بكل ما فيها من قبح . إن شخصيتها البسيطة غير المتكلفة تشربت مسحة من شخصية خالها . وكان فيها كثير من ذوقه ومن مرحه وأدبه الجم ، ومن هنا كان السعى إلى الاجتماع بها والتودد إليها » (٩٩) .

وفى يوم وفاة مدام دى شاتيليه كتب فولتير إلى ابنة أخته :

« ابنتى العزيزة ، فقدت اليوم صديقة عشرين عاما . ولوقت غير قصير — كما تعرفين . لم أكن أنظر إلى مدام دى شاتيليه على أنها امرأة (هكذا) . وأنا واثق أنك ستشاطرينى الحزن الشديد عليها . إنه من المؤسف حقاً أن أراها تفارق الحياة فى مثل هذه الظروف ولمثل هـذا السبب ، وأنا لا أتخلى عن المركيز دى شاتيليه فى هذه المحنة المتبادلة . . . . سأحضر من سيرى إلى باريس لأحتضنك بين ذراعى ، والتمس فيك عزائى وأملى الوحيد فى الحياة (١٠٠) .

وطوال الشهور الثمانية التى قضاها فى العاصمـــة ، تلقى فولتير من فردريك الأكبر رسائل كثيرة يستحثه فيها على الحضور ، وكان هو يميل إلى قبول الدعوة . وعرض عليه فردريك أن يشغل وظيفة كبيرة فى البلاط ، مع دار خاصة بالمجان براتب قدره ٥٠٠٠ تالر فى العام . (١٠١) ولكن فولتير الذى كان من رجال المال مثلما كان فيلسوفا ، طلب إلى ملك بروسيا أن يقرضه بعض المال لتسديد نفقات الرحلة : ووافق الملك فى تأنيب ماكر ، حيث شبه الشاعر بهوراس الذى رأى من الحكمة أن يمزج النافع بالمقبول (١٠٢) . وطلب فولتير الاذن بالرحيل من ملك فرنسا ، ووافق لويس على الفور ، قائلا لخلصائه المقربين : « هذا سيزيد من جنون رجل مجنون فى بلاط بروسيا وسيخفف من جنون رجل فى فرساى(١٠٣) . وفى ١٠ يونيه ١٧٥٠ غادر فولتير باريس إلى برلين .

المراجع

CHAPTER VII

1. Sée, H., *Economic and Social Conditions in France during the 18th Century*, 87.
2. *Ibid.*, 84.
3. Sumner, W. G., *Folkways*, 165.
4. Sée, 104; Goodwin, A., *The European Nobility in the 18th Century*, 36.
5. Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 107.
6. Ducros, L., *French Society in the 18th Century*, 158, 207; Wolf, A., *History of Science . . . and Philosophy in the 18th Century*, 558.
7. Palmer, R. R., *Catholics and Unbelievers in 18th-Century France*, 13n.
8. Lacroix, P., *Eighteenth Century*, 138.
9. *Camb. Mod. History*, VIII, 53.
10. Lacroix, 138.
11. Ducros, 24; Herbert, S., *Fall of Feudalism in France*, xvii.
12. Taine, *Ancient Regime*, 130.
13. Goodwin, *European Nobility*, 31.
14. Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 32.
15. Sée, 61.
16. Taine, *Ancient Regime*, 20, 41.
17. Tocqueville, 34.
18. Taine, 15.
19. *Camb. Mod. History*, VIII, 53.
20. *Ibid.*, 52; Sée, 3.
21. Palmer, R. R., 25; Lacroix, 157.
22. Taine, 42 f.
23. Voltaire, *Works*, XVIa, 261.
24. Martin, H., XV, 439.
25. *Ibid.*, 439-40.
26. Lacroix, 157.
27. *Ibid.*, 269.
28. Taine, 34.
29. *Ibid.*, 119-20.
30. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 10, 15; Montalembert, *Monks of the West*, II, 86.
31. Martin, Kingsley, *Rise of French Liberal Thought*, 79.
32. Taine, 62; Michelet, *Histoire de France*, V, 288.
33. Martin, H., XV, 441.
34. *Ibid.*, 442.
35. Taine, 63.
36. Lecky, *History of England*, V, 329.
37. Desnoiresterres, VIII, 248.
38. Lacroix, 270.
39. Guizot, *History of France*, V, 48.
40. Sée, 4.
41. Herbert, *Fall of Feudalism*, 56.
42. Taine, 23-24; Ducros, 256-57.
43. Herbert, 37.
44. Sée, 15.
45. Herbert, 4-5.
46. Sée, 28.
47. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, I, 395 (Oct. 10, 1718).
48. Taine, 330.
49. Martin, H., XV, 216.
50. Sée, 38.
51. Voltaire, *Works*, XIXa, 94.
52. *Philosophical Dictionary*, article "Lent."
53. Cobban, *History of Modern France*, 42.
54. Sée, 181.
55. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 193.
56. Mantoux, *Industrial Revolution*, 409.
57. Sée, 165.
58. Taine, 334.
59. Mornet, *Origines intellectuelles de la Révolution française*, 28.
60. Parton, II, 184.
61. Lacroix, 228
62. *Ibid.*, 311.
63. Nussbaum, *History of the Economic Institutions of Modern Europe*, 124.
64. Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 67.
65. Sée, 151-53.
66. Martin, H., XV, 213.
67. *Ibid.*, 305.
68. Sée, 93.
69. Ducros, 160.
70. Toth, *Woman and Rococo in France*, 179.
71. Lacroix, 206.
72. *Ibid.*

73. Goncourts. *Madame de Pompadour*, 5-7.
74. Desnoiresterres. III, 241.
75. Grimm. *Correspondance*, VIII, 231-33, in Buckle, I, 539.
76. Saint-Simon in Lacroix, 302.
77. Lacroix, 209.
78. Ducros, 53.
79. Stryienski. *Eighteenth Century*, 57.
80. Lanfrey. *L'Eglise et les philosophes au xviiie siècle*, 129.
81. Michelet, V, 277; Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 445
82. Voltaire, *Works*, XVIa, 157
83. Stryienski, 79
84. *Works*, XVIa, 158.
85. Martin, H., XV, 256n.
86. Stryienski, 85
87. Desnoiresterres, II, 336
88. Martin, H., XV, 251.
89. Saint-Simon, *Memoirs*, III, 283.
90. *Michelet*, V, 248.
91. Martin, H., XV, 116n.; Ercole, *Gay Court Life*, 88.
92. Bearne, *Court Painter*, 85
93. Guizot. *History of France*, V, 78.
94. Goncourts, *Pompadour*, 9.
95. Michelet, V, 325
96. Ercole, 167.
97. Lewis, D. B. Wyndham, *Four Favorites*, 42
98. Stryienski, 140-41
99. *Webster's Biographical Dictionary*, 833.
100. Brandes, I, 224.
101. Voltaire, *Works*, XVIb, 224.
102. Carlyle, Thos., *History of Friedrich II*, IV, 438; *Enc Brit.*, IX, 454a.
103. Voltaire, XVIb, 238; Martin, H., XV, 282; Stryienski, 148.
104. Voltaire, XVIb, 239.
105. Stryienski, 149.
106. Martin, H., XV 431n.
107. Lichtenberger in Martin, K., *Rise of French Liberal Thought*, 238
108. Martin, H., XV, 356-58.
109. Lecky, *England*, V, 327.
110. Goncourts, *Pompadour*, 12
111. Michelet, V, 349.
112. Ercole, 197.
113. Goncourts, 117.
114. Ercole, 203.
115. Lewis, *Four Favorites*, 48.
116. Taine, *Ancient Regime*, 82
117. Goncourts, 71.
118. *Ibid.*, 348.
119. Sainte-Beuve, I, 450.
120. *Ibid.*, 451
121. Michelet, V, 354.
122. Martin, H., XV, 436.
123. Goncourts, 131
124. Lewis, 50.
125. Ercole, 209.
126. Toth, 165.
127. Goncourts, 127.
128. Du Hausset, Mme., *Memoirs of Mme. de Pompadour*, 65.
129. Ercole, 220.
130. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 249.

CHAPTER VIII

1. See, *Economic and Social Conditions*, 48 f.
2. Funck-Brentano, *L'Ancien Régime*, 422.
3. La Fontainerie, *French Liberalism and Education*, 6.
4. Lacroix, 252.
5. *Ibid.*, 151.
6. 242.
7. 244.
8. Desnoiresterres, III, 133.
9. Créqui, *Souvenirs*, 57, 121.
10. Ducros, *French Society*, 83.
11. Chesterfield, *Letters*, I, 348.
12. Brandes, I, 147.
13. *Ibid.*, 141.
14. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 187.
15. *Ibid.*, 188.
16. Mornet, *Origines intellectuelles de la Révolution française*, 53
17. Funck-Brentano, 50.
18. Ducros, 61
19. Quoted in Funck-Brentano, 60.
20. Taine, *Ancient Regime*, 134.
21. Walpole, *Letters*, I, 309 (Oct. 28, 1752)
22. Toth, 135.
23. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 25.
24. D'Argenson, *Mémoires*, in Martin, H., XV, 341.
25. Ducros, 342.
26. Mossner, *Hume*, 92.
27. Köhler, Carl, *History of Costume*, 340.
28. Créqui, 123.
29. Lacroix, 370.
30. Ducros, 35.
31. *Philosophical Dictionary*, art. "Lent," in *Works*, VIa, 108.
32. Mousnier and Labrousse, *Dix-huitième Siècle*, 166.
33. Michelet, V, 189.
34. Laing, P. H., *Music in Western Civilization*, 441
35. Burney, C., *General History of Music*, II, 965, 969.
36. *Grove's Dictionary of Music and Musicians*, IV, 320d.
37. Burney, II, 970.
38. Diderot, *Le Neveu de Rameau*.
39. Duclos, C., *Considérations sur les moeurs*, 13.

40. Goldsmith, O., *Miscellaneous Works*, 430.
41. Mme. Vigée-Lebrun, *Mémoires*, I, 156, in Taine, *Ancient Regime*, 141n.
42. Goncourts, *Woman*, 317.
43. Marmontel, *Memoirs*, I, 181.
44. Batiffol, *Great Literary Salons*, 131.
45. Walpole to Gray, Jan. 25, 1766.
46. Batiffol, 208.
47. Kavanagh, *Woman in France during the 18th Century*, I, 168.
48. Diderot, "On Women," in *Dialogues*, 196.

CHAPTER IX

1. Faniel, S., *French Art of the 18th Century*, 36.
2. *Ibid.*, 91.
3. Funck-Brentano, 180.
4. Louvre.
5. See the great commode in the Wallace Collection.
6. Dilke, Lady E., *French Architects and Sculptors of the 18th Century*, 77.
7. *Ibid.*, 81.
8. Louvre.
9. Turner and Baker, *Stories of the French Artists*, 181.
10. Dijon Museum.
11. Versailles Museum.
12. Louvre.
13. Bearne, *Court Painter*, 164.
14. Diderot, *Salons*, I, 9, 114-19.
15. Bearne, 43.
16. Turner, 193.
17. Goncourts, *French 18th-Century Painters*, 61.
18. Turner, 197.
19. Louvre.
20. Block, *François Boucher and the Beauvais Tapestries*, 26.
21. Goncourts, *French Painters*, 69. Seven are in the Huntington Library and Gallery at San Marino, Calif.
22. *Ibid.*
23. Wallace Collection.
24. Goncourts, *French Painters*, 91.
25. *Ibid.*, 84.
26. Block, 11.
27. Ridder, *Chardin*, 8, Goncourts, *French Painters*, 117.
28. Louvre.
29. Louvre.
30. Louvre.
31. Louvre.
32. Goncourts, 141-42, Havens, *Age of Ideas*, 321.
33. Diderot, *Salons*, III, 4.
34. Goncourts, 177n.
35. *Ibid.*
36. *Ibid.*
37. *Ibid.*, 164n.
38. Louvre.
39. St.-Quentin Museum.
40. Dresden.
41. St.-Quentin.

CHAPTER X

1. Duclos, *Considérations*, 217.
2. Grimm, *Correspondance*, III, 73.
3. Parton, I, 509.
4. Voltaire, essay "Ancient and Modern Tragedy," in *Works*, XIXa, 134.
5. "Discourse on Tragedy," in *Works*, XIXb, 181 f.
6. Parton, II, 325.
7. Brandes, I, 72.
8. Edwards, H. S., *Idols of the French Stage*, 83; Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 170.
9. Michelet, V, 303.
10. Sainte-Beuve, I, 180.
11. Michelet, V, 304.
12. Mitford, N., *Madame de Pompadour*, 126.
13. Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 260.
14. Marivaux, *Vie de Marianne*, 3.
15. Crébillon *fils*, *Le Sopha*, introd.
16. *Le Sopha*, 65.
17. Palache, *Four Novelists of the Old Regime*, 4, 49.
18. Crébillon, *Le Sopha*, introd.
19. Saintsbury, G., introd. to Prévost's *Manon Lescaut*, xliii.
20. *Manon Lescaut*, 220.
21. *Ibid.*, 10.
22. 57.
23. Faguet, E., *Literary History of France*, 489.
24. Saintsbury, introd. to *Manon Lescaut*, ix-xii.
25. Bury, J., *History of the Idea of Progress*, 135-36. Martin, K., 280.
26. Lichtenberger, A., *Le Socialisme et la Revolution française*, 73; Martin, H., XV, 335; Martin, K., 62, Hazard, 197.
27. In Martin, K., 61.
28. In Crocker, *Age of Crisis*, 426-29.
29. Duclos, *Considérations*, 11-12.
30. *Ibid.*, 17, 21.
31. 27.
32. 25.
33. Torh, 38.
34. La Bruyère and Vauvenargues, *Selections*, 189.
35. Vauvenargues, *Oeuvres choisies*, cxv iv.
36. La Bruyère and Vauvenargues, 179.
37. Vauvenargues, CLXXXVII.
38. *Ibid.*, CLXXXII.

39. Crocker, *Age of Crisis*, 138-39.
40. *Ibid.*, 30.
41. Vauvenargues, CLXIX.
42. La Bruyère and Vauvenargues, 173-74.
43. Vauvenargues, CL.
44. *Ibid.*, LVII.
45. CLXXX.
46. CLVII.
47. P. 158.
48. P. 173.
49. *Ibid.*
50. 310.
51. Voltaire, letter of Apr. 4, 1744, in Martin, H., XV, 407n.
52. Voltaire, XIXa, 43.
53. Sorel, A., *Montesquieu*, 125
54. *Ibid.*, 9.
55. 23.
56. Montesquieu, *Spirit of Laws*, Book V Ch. xix.
57. *Persian Letters*, XXIV.
58. In Sorel, 43.
59. Herodotus, *History*, IV, 183.
60. Aristotle, *Historia animalium*, viii, 12
61. *Persian Letters*, XII.
62. Letter XXIV.
63. XXIX.
64. CXVIII.
65. CXIII.
66. CXVIII.
67. XXXV.
68. LXXXVI.
69. Sorel, 49.
70. *Grandeur et décadence des Romains*, introd., *vi.*
71. *Ibid.*, Ch. xviii.
72. Ch. xii.
73. Ch. xviii.
74. Ch. vi.
75. Ch. xv.
76. Quoted in Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 195.
77. *Spirit of Laws*, preface.
78. *Ibid.*
79. Palache, 35.
80. Martin, K., 151.
81 *Spirit of Laws*, Book I, Ch. iii.
82. *Ibid.*, XIV, i-x.
83. XVI, i-iii.
84. *Ibid.*, xi
85. *Ibid.*
86. XIV, v.
87. VIII, xvi-xix.
88. Explanatory notes prefixed by Montesquieu to the second edition.
89. IV, vi.
90. In Sée, H., *Idées politiques en France au xviii^e siècle*, 46.
91. *Spirit of Laws*, VIII, ii.
92. V, xiii.
93. V, x.
94. XI, vi.
95. *Ibid.*
96. *Ibid.*
97. XI, iii.
98. *Grandeur et décadence*, Ch. vii.
99. *Spirit of Laws*, XXIII, xxviii.
100. XV, v.
101. X, ii.
102. XIII, xvii.
103. *Pensées diverses*, in Hearnshaw, *Great Thinkers of the Age of Reason*, 116.
104. Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 173.
105. *Spirit of Laws*, XXIV, x.
106. I, i.
107. XII, xxix.
108. In Havens, *Age of Ideas*, 121
109. *Spirit of Laws*, XXIV, ii.
110. *Ibid.*, iii and xxvi.
111. XXIV, v.
112. XXV, v.
113. *Ibid.*, xiii.
114. *Ibid.*, x.
115. Quoted in Faguet, 195.
116. Sorel, 166.
117. Pappas, *Berthier's* Journal de Trévoux, 78 f., Martin, K., 153.
118. Sorel, 163.
119. Martin, K., 168.
120. Sorel,
121 Voltaire, XIXa, 238-39.
122. *Philosophical Dictionary*, art. "Climate," in *Works*, IVa, 204-9.
123. *Ibid.*
124. Art. "Laws," in *Works*, VIa, 104.
125. Art. "Laws, Spirit of," in *Works*, VIa, 106-8.
126. Morley, *Life of Voltaire*, 9.
127. Cf. Macaulay, *Critical Essays and Poems*, I, 126; Dunning, *History of Political Theories*, III, 428-31, Flint, *History of the Philosophy of History*, 272-76; Brunetière, 301; Stephen, L., *English Thought in the 18th Century*, II, 188; Sorel, 139-41.
128. *Spirit of Laws*, VII, iii.
129. Spencer, *Principles of Sociology* (3v., London, 1876–96).
130. Laski, H., *Political Thought in England*, 109,
131. Taine, *Ancient Regime*, 213.
132. Walpole, *Letters*, II, 187 (Jan. 10, 1750)
133. Sainte-Beuve, *Portraits*, I, 146.
134. Hearnshaw, *French Thinkers of the Age of Reason*, 116.
135. Havens, *Age of Ideas*, 127.
136. Sorel, 169.
137. Grimm, *Correspondance*, II, 491.
138. Gibbon, E., *Decline and Fall of the Roman Empire* (1779 ed.), II, 142.
139. Waliszewski, *Romance of an Empress*, 91.

140. Sorel, 171.
141. Faguer, *Dix-huitième Siècle*, 188.

CHAPTER XI

1. Desnoiresterres, I, 410.
2. Bain, R. N., in Voltaire, *Charles XII*, introd. xxii.
3. E.g., Buckle, I, 577
4. Voltaire, *Charles XII*, p. 11
5. *Ibid.*, 334.
6. Letter of Aug. 25, 1731, in *Works*, XXIa, 216.
7. *Zaire*, I, i, in *Works*, Xa, 17.
8. *Zaire*, II, iii.
9. Desnoiresterres, II, 2.
10. Créqui, *Souvenirs*, 35.
11. Brandes, I, 256.
12. *Ibid.*, 345.
13. *Letters on the English*, Letter 1, in *Works*, XIXb, 193-98.
14. Letter v.
15. *Ibid.*
16. Letter VIII, translation in Havens, *Age of Ideas*, 168.
17. *Ibid.*, 169.
18. Letter x.
19. Letter VIII; Hearnshaw, *French Thinkers of the Age of Reason*, 151
20. *Works*, XIXb, 29.
21. Brandes, I, 203
22. Voltaire, XIb, 212
23. *Ibid.*, 219.
24. 235
25. Buckle, I, 517.
26. Parton, I, 225
27. *Ibid.*, 303.
28. 343.
29. Desnoiresterres, II, 139.
30. Parton, I, 384.
31. Desnoiresterres, II, 239.
32. *Ibid.*, III, 113-15.
33. Françoise de Graffigny, *Vie privée de Voltaire et Mme du Châtelet à Cirey* (Paris, 1820), in Brandes, I, 400.
34. Brandes, I, 354.
35. Pomeau, *La Religion de Voltaire*, 190.
36. Parton, I, 391
37. Créqui, 35.
38. Parton, I, 389.
39. Wade, Ira, *Voltaire and Mme. du Châtelet*, 14.
40. *Ibid.*
41. 37.
42. Brandes, I, 388.
43. Voltaire, XXIa, 197-201.
44. Desnoiresterres, III, 330.
45. Voltaire, XXIa, 193, 209.
46. Letter of Apr. 15, 1741, in Gay, *Voltaire's Politics*, 26.
47. Brandes, I, 365; Desnoiresterres, II, 53.
48. Voltaire, XXIb, 107.
49. Ia, 299.
50. Voltaire, *Traité de métaphysique* (*Oeuvres complètes*, XLIII), end of Ch. i.
51. *Ibid.*, p. 187.
52. Taine, *Ancient Regime*, 258.
53. *La Pucelle*, Canto II, in *Works*, XXa, 83 f.
54. Voltaire, *Alzire*, I, i.
55. Brandes, I, 361.
56. Parton, I, 445.
57. Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 474.
58. *Mahomet*, III, VI, in *Works*, VIIIb, 55
59. Brandes, II, 8.
60. Voltaire and Frederick the Great, *Letters*, p. 101
61. Gibbon, E., *Journal*, 130.
62. Parton, I, 461.
63. Brandes, I, 405.
64. *Ibid.*
65. Mitford, N., *Voltaire in Love*, 75.
66. Parton, I, 542-45.
67. Martin, H., XV, 402.
68. Voltaire, XXIb, 98.
69. XXIa, 190, 193.
70. *Ibid.*, 195.
71. Parton, I, 575.
72. *Ibid.*, 352.
73. Voltaire, VIIIb, 12.
74. *Ibid.*, 14.
75. Voltaire, IIa, 282.
76. Ib, 6.
77. IIb, 41.
78. IIa, 63.
79. IIa, 26.
80. IIa, 44-45.
81. Parton, I, 581-82.
82. Voltaire and Frederick, *Letters*, 188, 191
83. Longchamp in Parton, I, 553 f.
84. Longchamp in Desnoiresterres, III 246. and Parton, I, 556.
85. Parton, I, 562.
86. Voltaire and Frederick, *Letters*, 191
87. Desnoiresterres, III, 390.
88. Parton, I, 571.
89. Voltaire-Frederick *Letters*, 33.
90. Voltaire, *Lettres d'amour à sa nièce*, 53
91. Voltaire, *Love Letters to His Niece*, 46. Dr. Besterman translates *cazzo* as "prick."
92. *Lettres d'amour*, 57; *Love Letters*, 48.
93. *Lettres d'amour*, 69; *Love Letters*, 54.
94. *Letters d'amour*, 77; *Love Letters*, 57.
95. *Lettres d'amour*, 77, *Love Letters*, 58.
96. *Lettres d'amour*, 146.
97. *Love Letters*, 103.
98. *Lettres d'amour*, 15.
99. Marmontel, *Memoirs*, I, 121.
100. Mitford, N., *Voltaire in Love*, 303

01. Nicolson, *Age of Reason*, 110.
02. Voltaire-Frederick *Letters*, 212; Gay, *Voltaire's Politics*, 150
03. Gay,.151.

CHAPTER XII

1. Mossner, *Hume*, 110.
2. Richard, E., *History of German Civilization*, 326; de Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 27. Thompson, J. W., *Economic and Social History of . the Later Middle Ages*, 483
3. Taine, *Ancient Regime*, 28.
4. See Muhlhausen as described in Spitta *J. S. Bach*, I, 344.
5. Láng, *Music in Western Civilization*, 608.
6. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, I, 255 (Nov. 21, 1716).
7. Tietze, *Treasures of the Great National Galleries*, 137.
8. Burney, C., *General History of Music*, II, 943.
9. Desnoiresterres, IV, 160.
10. In Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 334.
11. Francke, *History of German Literature*, 223.
12. Ausubel, *Superman: The Life of Frederick the Great*, 756.
13. Wolf, *History of Science . . . and Philosophy*, 778.
14. Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 40.
15. Lovejoy, *Essays in the History of Ideas*, 108.
16. *Enc. Brit.*, XXIII, 697c.
17. *Enc. of Religion and Ethics*, VIII, 838b.
18. Schoenfeld, *Women of the Teutonic Nations*, 283.
19. *Ibid.*, 298.
20. Text in Smith, P., *History of Modern Culture*, II, 601.
21. Chesterfield, *Letters*, Sept. 5, 1748
22. Goldsmith, O., *Inquiry into the Present State of Polite Learning in Europe*, in *Miscellaneous Works*, 426.
23. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 63.
24. Montagu, Lady Mary, letter of Dec. 17, 1716.
25. Dillon, E., *Glass*, 5.
26. Bock, E., *Geschichte der Graphischen Kunst*, 477-84.
27. Berlin
28. Barockmuseum, Vienna.
29. Sitwell, S., *German Baroque Art*, 94.
30. *Oxford History of Music*, IV, 4.
31. Láng, 450
32. Spitta, *Bach*, II, 46. *Enc Brit.*, XVII, 896b.
33. Spitta, III, 18.
34. Rolland, *Musical Tour*, 84.
35. *Ibid.*, 211.
36. 207-8.
37. *Grove's Dictionary of Music*, II, 556.
38. Rolland, 211n.
39. *Grove's*, V, 297.
40. Ebeling in Rolland, 119.
41. E.g., Concerto in D for trumpet; Suite in A Minor for flute; Don Quixote Suite.
42. Schweitzer, A., *J. S. Bach*, I, 103-4.
43. Spitta, I, 373.
44. *Grove's*, I, 158. On the Vivaldi transcriptions, see Pincherle, Marc, *Vivaldi*, 230-31.
45. Spitta, II, 147.
46. Lang, 493.
47. *Grove's*, I, 161.
48. Schweitzer, I, 115.
49. Spitta, III, 261-64.
50. *Grove's*, I, 165.
51. Pratt, *History of Music*, 257.
52. Schweitzer, I, 338.
53. *Ibid.*, 321.
54. Spitta, II, 55.
55. Forkel in Schweitzer, I, 323
56. *Ibid.*, 404.
57. 292.
58. Láng, 499.
59. Davison, A., *Bach and Handel*, 56.
60. Schweitzer, I, 180.
61. Spitta, III, 252.
62. *Ibid.*
63. 263.
64. Weinstock, *Handel*, 4.
65. *Grove's*, I, 167
66. Rolland, 71
67. Spitta, II, 147.
68. McKinney and Anderson, *Music in History*, 407.
69. Words of the preacher at Bach's funeral, Spitta, III, 275
70. Letter of Karl Zelter in Schweitzer, I, 231.
71. *Ibid.*, 230, Rolland, 219; Davison, 11.
72. Schweitzer, I, 238.
73. *Ibid.*, 242
74. 254.

CHAPTER XIII

1. Carlyle, T., *Friedrich the Second*, IV, 171
2. Goodwin, *European Nobility*, 129.
3. Montagu, Lady Mary, *Letters*, I, 245.
4. Goodwin, 112.
5. Mowat, R. B., *Age of Reason*, 264. *New Camb. Mod. History*, VII, 402.
6. In 1714-34.
7. 1726-33.

8. 1715–56
9. 1722–32.
10. 1729–32.
11. Nawrath, *Austria*, 15. The church was built in 1733.
12. Sitwell, *German Baroque Art*, 37; *cf.* Baedeker, *Austria*, 46.
13. Barockmuseum, Vienna.
14. *Ibid.*
15. Montagu, Lady M., I, 238.
16. Burney, C., II, 942.
17. Garnett, R., *History of Italian Literature*, 315.
18. Frederick, *Mémoires*, I, 14.
19. *Enc. Brit.*, X, 274b.
20. Coxe, Wm., *History of the House of Austria*, III, 241.
21. *Ibid.*, 242.
22. *New Camb. Mod. History*, VII, 407.
23. Monroe, Paul, *History of Education*, 435.
24. Macaulay, *Essays*, II. 121; Acton, *Lectures on Modern History*, 288.
25. *Camb. Mod. History*, VI. 210.
26. *Ibid.*, 213.
27. 214.
28. Carlyle, *Friedrich*, I, 335.
29. Wilhelmine, Margravine, *Memoirs*, 31, 34, 52, 204.
30. *Ibid.*, 13, 63.
31. Carlyle, I, 377.
32. Wilhelmine, 91.
33. *Ibid.*, 84, 91.
34. Carlyle, II, 95.
35. *Camb. Mod. History*, VI, 211.
36. Wilhelmine, 109.
37. *Ibid.*, 164.
38. Carlyle, II, 317.
39. *Ibid.*, 339.
40. 349.
41. Wilhelmine, 230.
42. Carlyle, III, 64-66.
43. *Ibid.*, 66-68.
44. Voltaire-Frederick *Letters*, Nov. 4, 1736.
45. Apr. 7, 1737.
46. Jan. 20, 1737.
47. Frederick to Voltaire, Nov. 4, 1736, Feb. 8, 1737.
48. Dec. 3, 1736.
49. Dec. 25, 1737.
50. June, 1738.
51. Dec. 25, 1737.
52. Mar. 28, 1738.
53. Carlyle, III, 98.
54. Parton, I, 240.
55. Frederick, quoted in Villari, P., *Life and Times of Niccolò Machiavelli*, II, 201.
56. In Francke, *History of German Literature*, 230.
57. Carlyle, III, 142.
58. Valori in Ausubel, 435.
59. Frederick to Voltaire, June 6, 1740.
60. June 27, 1740.
61. Lea, H. C., *Superstition and Force*, 575.
62. Carlyle, III, 161
63. *Ibid.*, 163.
64. Smith, P., *History of Modern Culture*, II, 571
65. Carlyle, III, 175.
66. Goldsmith, O., *Miscellaneous Works*, 427.
67. Carlyle, III, 233.
68. *Ibid.*; Desnoiresterres, II, 290.
69. Voltaire-Frederick *Letters*, 143.
70. Fleury to Voltaire, Nov. 14, 1740, in Parton, I, 438.
71. *Ibid.*
72. Carlyle, III, 278.
73. Ausubel, 443.
74. Lützow, Count von, *Bohemia*, 317.
75. Frederick, *Mémoires*, I, 94.
76. *Ibid.*, 103.
77. Coxe, *House of Austria*, III, 270; Macaulay, *Essays*, II, 126.
78. *Enc. Brit.*, XIV, 881d.
79. Carlyle, IV, 70.
80. Coxe, III, 309.
81. Carlyle, V, 36.
82. Voltaire to Frederick, March, 1742, in Voltaire-Frederick *Letters*, 159.
83. Frederick to Voltaire, Feb. 12, 1742.
84. Frederick, *Mémoires*, I, 5.
85. *Enc. Brit.*, IX, 718c.
86. In Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 313.
87. Carlyle, V, 201.
88. *Ibid.*, III, 260.
89. Carlyle, V, 197, hotly repudiates any sodomitic implications.
90. *Enc. Brit.*, IX, 718c.
91. Carlyle, V, 65.
92. *Ibid.*, VII, 462; Mowat, *Age of Reason*, 101.
93. Letter of Aug. 31, 1750, in Parton, I, 611.
94. Desnoiresterres, IV, 108.
95. Taine, *Ancient Regime*, 281n.
96. Voltaire, *Works*, XXIa, 221.
97. Parton, I, 610.
98. *Ibid.*
99. Carlyle, V, 137.
100. *Ibid.*, 146.
101. Gay, *Voltaire's Politics*, 154.
102. Voltaire, XXIa, 213.
103. Lanson, *Voltaire*, 112-13.
104. Parton, I, 340.
105. Chesterfield, letter of Apr. 13, 1752.
106. Parton, II, 59.
107. *Ibid.*, 59-60; Desnoiresterres, IV, 196.
108. Morley, *Life of Voltaire*, 184.
109. Carlyle, V, 182.
110. *Ibid.*, 180.
111. 209.

112. 113.
113. 214; Strachey. *Books and Characters*, 191.
4. Voltaire, XIXa, 184f.
115. *Ibid.*
116. Parton, II, 126.
117. *Ibid.*, 203.
118. Carlyle, V, 223.
119. Parton, II, 108.
120. *Ibid.*, 138.
121. Voltaire, *Lettres d'Alsace*, 135-36 (Dec. 14, 1753).
122. Parton, II, 167-69.
123. Montesquieu, letter of Sept. 28, 1753, in Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 162.
124. *Philosophical Dictionary*, article "Quakers."
125. Bertrand, J. *D'Alembert*, 91.

CHAPTER XIV

1. Letter of May 27, 1756, in Chaponnière, *Voltaire chez les Calvinistes*, 18.
2. Épinay, Mme. d', *Memoirs and Correspondence*, III, 178.
3. Marmontel, *Memoirs*, I, 317.
4. Morley, *Life of Voltaire*, 200.
5 Boswell, *Life of Samuel Johnson*, 87.
6. Oechsli, W., *History of Switzerland*, 260.
7. *Ibid.*, 272.
8. In Herold, *The Swiss without Halos*, 161.
9. Oechsli, 264:
10. Coxe, *Travels in Switzerland*, II, 225.
11. *Ibid.*, 179.
12. Oechsli, 265.
13. Coxe, *Travels*, I, 304.
14. Oechsli, 243.
15. *Ibid.*, 245.
16. Coxe, II, 262.
17. Casanova, *Memoirs*, I, 392, 407.
18. Coxe, II, 292.
19. *Ibid.*
20. Francke, *History of German Literature*, 220.
21. Lough, J., *The Encyclopédie*, 50.
22. Épinay, *Memoirs*, III, 199.
23. Coxe, II, 357.
24. Épinay, III, 173-75.
25. Masson, P., *La Religion de Rousseau*, I, 10-11.
26. In Naves, *Voltaire et l'Encyclopédie*, 148.
27. *Ibid.*, 39.
28. 40.
29. Lough, 94.
30. Desnoiresterres, V, 179-81.
31. Lough, 92.
32. Geneva, Musée d'Art et d'Histoire.
33. Jean Gaberel in Parton, II, 228.
34. Voltaire, *Essai sur les moeurs*, Ch. lxviii.
35. Morley, 284.
36. *Ibid.*, 290.
37. Flint, *History of the Philosophy of History*, 254.
38. Letter to Thieriot, Oct. 31, 1738.
39. Parton, I, 465.
40. Buckle, I, 580.
41. *Phil. Dict.*, art. "History," in *Works*, Vb, 64.
42. *Ibid.*
43. Voltaire, *Works*, XVIa, 137.
44. XIVa, 230.
45. *Essai sur les moeurs*, Ch. xx.
46. *Ibid.*, Ch. cxxxix.
47. Lanson, *Voltaire*, 123-24.
48. Robertson. Wm., *History of the Reign of Charles V*, I, 290.
49. "Observations on History," in *Works*, XIXa, 269.
50. *Essai*, Ch. cxcvii.
51. Ch. lxviii.
52. *Works*, XVIa, 133-36, 144.
53. Chateaubriand, *The Genius of Christianity*, III, iii, 6, p. 430.
54. Voltaire, XVIa, 250-51
55. Michelet, V. 274.

CHAPTER XV

1. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 307 f.
2. Smith, P., *Modern Culture*, II, 543; Nicolson, *Age of Reason*, 294.
3. Frederick to Voltaire, June 29, 1771.
4. Voltaire, *Works*, VIIb, 143.
5. Lecky, *History of Rationalism*, 145.
6. Blackstone, *Commentaries* (Oxford, 1775), IV, 60, in Lea, H. C., *History of the Inquisition in Spain*, IV, 247.
7. Clark, G. N., *The 17th Century*, 246.
8. Voltaire's estimate, in *Works*, XXIa, 250.
9. Mark xvi, 16.
10. Smith, P., *Modern Culture*, II, 555.
11. *Ibid.*, 556.
12. 550.
13. Putnam, G. H., *Censorship of the Church of Rome*, II, 255.
14. Wilson, A., *Diderot*, 121-22.
15. Brandes, II, 107.
16. Bertrand, *D'Alembert*, 92.
17. Brandes, II, 50.
18. Mornet, *Origines intellectuelles de la Révolution française*, 258.
19. *Cf. Catholic Enc.*, III, 189.
20. Voltaire, *Notebooks*, II, 351.
21. Faguet, *Literary History of France*, 361, 516.
22. Smith, P., II, 268.

23. Schweitzer, A., *Quest of the Historical Jesus*, 23.
24. Quoted in Lovejoy, *Essays in the History of Ideas*, 103.
25. *Ibid.*, 103 f
26. Hsin-hai Chang, in private correspondence with the authors.
27. In Lovejoy, *Essays*, 105.
28. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 455.
29. In Lovejoy, 105-6.
30. Maverick, L. A., *China, a Model for Europe*, 126.
31. Fülop-Miller, R., *Power and Secret of the Jesuits*, 485.
32. Reichwin, A., *China and Europe*, 124.
33. Voltaire, *Works*, VIIIa, 176.
34. Pinot, V., *La Chine et la formation de l'esprit philosophique en France*, 425
35. *Ibid.*, 315, 281.
36. Maverick, 242.
37. *Ibid.*, 113.
38. *Philosophical Dictionary*, art. "Glory," in *Works*, V2, 208.
39. *Works*, XVI2, 119; XVIIIb, 278.
40. XIIIa, 29.
41. Montesquieu, *Persian Letters*, XLVI.

CHAPTER XVI

1. Buckle, I, 66on
2. Fuss, N., in Smith, D. E., *History of Mathematics*, I, 522.
3. Bell, E. T., *Men of Mathemanics* 148.
4. *Ibid.*, 156.
5. 159.
6. Wolf, *History of Science*, 70.
7. Whitehead, A. N., *Science and the Modern World*, 91.
8. Bell, 170.
9. *Ibid.*
10. 171.
11. 185.
12. Whitehead, 90.
13. In Crocker, *Age of Crisis*, 8.
14. Bertrand, *D'Alembert*, 32.
15. Morley, J., *Diderot*, I, 123.
16. Bertrand, 143, 153, 164, Ségur, *Julie de Lespinasse*, 113-14.
17. Wolf, 217.
18. Williams, *History of Science*, II, 275.
19. Smith, P., *Modern Culture*, II, 73.
20. Williams, II, 286.
21. *Ibid.*, 289.
22. 290.
23. 295, Wolf, 232
24. Gibbon, *Essai sur l'étude de la littérature*, in *Miscellaneous Writings*, 2.
25. Williams, IV, 11.
26. Scheele, *Treatise on Fire and Air*, in Wolf, 358
27. *Ibid.*, 350.
28. *Enc. Brit.*, XX, 62c.
29. *Ibid.*, 62b.
30. Moore, F. J., *History of Chemistry*, 37-38.
31. French, S. J., *Torch and Crucible: The Life and Death of Antoine Lavoisier*, 80.
32. In Wolf, 353.
33. Moore, 44.
34. *Ibid.*, 42.
35. Huxley, T. H., *Science and Education*, 23.
36. In Willey, *Eighteenth-Century Background*, 177.
37. Priestley, Jos., *Essay on the First Principles of Government*, in Willey, 195.
38. Priestley, *History of the Corruptions of Christianity*, in Willey, 170.
39. *Essay on the First Principles of Government*, in Huxley, 27.
40. *Ibid.*, in Willey, 197
41. Schuster, M. Lincoln, *Treasury of the World's Great Letters*, 187
42. French, S. J., 215
43. Dakin, *Turgot and the Ancien Régime in France*, 166.
44. Moore, 49.
45. McKie, *Antoine Lavoisier*, 225
46. *Ibid.*, 293
47. 325.
48. 319.
49. 412 f.
50. 404.
51. 407.
52. French, 267
53. Williams, III, 11
54. Langer, W. L., *Encyclopedia of World History*, 435
55. Berry, *Short History of Astronomy*, 325.
56. Burney, Fanny, *Diary*, 161 (Dec. 30, 1786).
57. Williams, III, 21.
58. *Enc. Brit.*, XI, 520d.
59. Bertrand, *D'Alembert*, 45.
60. Martin, H., XV, 397.
61. Bell, *Men of Mathematics*, 173.
62. *Ibid.*
63. 172.
64. Laplace, *Systeme du monde*, V, vi, in Berry, 322.
65. Laplace, *Théorie analytique des probabilités*, preface, in Nagel, *Structure of Science*, 281
66. Quoted by Cajori in Newton, *Mathematical Principles of Natural Philosophy*, 677.
67. Sedgwick and Tyler, *Short History of Science*, 332.
68. Mousnier and Labrousse, *Dix-huitième Siècle*, 31.

69. In Bell, 182.
70. Berry, 307.
71. Wolf, 199.
72. Buffon, *Oeuvres*, IX, 455.
73. *Ibid.*, 388.
74. XI, 454.
75. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 269.
76. Buffon, *Oeuvres*, IX, 454.
77. Trattner, *Architects of Ideas*, 66.
78. Gourlie, *Prince of Botanists: Carl Linnaeus*, 3.
79. *Ibid.*, 34.
80. In Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 354.
81. Locy, *Biology and Its Makers*, 122.
82. Sainte-Beuve, II, 263.
83. Lecky, *History of . . . Rationalism*, II, 16.
84. Osborn, H. F., *From the Greeks to Darwin*, 130.
85. Bearne, *A Court Painter and his Circle*, 272.
86. Rousseau, letter of Sept. 21, 1771.
87. Gourlie, 270.
88. Wolf, 455.
89. *Ibid.*, 456.
90. 457.
91. *Enc. Brit.*, XVIII 3a.
92. Locy, 399.
93. Wolf, 349.
94. *Ibid.*, 450.
95. Jardine, Wm., *The Naturalist's Library*, 24.
96. *Ibid.*, 321
97. Sainte-Beuve, II, 264.
98 Osborn, 136.
99. In Butterfield, *Origins of Modern Science*, 175
100. Buffon, *Discours sur la nature des animaux*, in Martin, H., XVI, 37.
101 Goncourts, *Madame de Pompadour*, 145.
102 Osborn, H F., *Men of the Old Stone Age* 3.
103 Osborn, *From the Greeks to Darwin*, 134, and Martin, K., *Rise of French Liberal Thought*, 99-100.
104 In Smith, P., II, 518.
105. In Buffon, *Oeuvres complètes*, I, introd. *xxii*.
106. Rousseau, letter of Nov. 4, 1764.
107. Sainte-Beuve, II, 208.
108. Buffon, I, introd., *xxiii*.
109. *Ibid.*, XII, 324-30.
110. *Ibid.*, 324n.
111. Hazard, 144.
112. Voltaire, letter to Helvétius, Oct. 17, 1740.
113. Sainte-Beuve, II, 254.
114. Jardine, 32.
115. *Ibid.*, 29.
116. In Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 588n.
117. Garrison, F., *History of Medicine*, 334.
118. Lovejoy, A., *The Great Chain of Being*, 233.
119. Réaumur, *Mémoires*; in Smith, P., *Modern Culture*, II, 101.
120. Vartanian, A., *Diderot and Descartes*, 176.
121. Osborn, *From the Greeks to Darwin*, 118.
122. Maupertuis in Crocker, *Age of Crisis* 81.
123. Osborn, 114-15.
124. *Ibid.*, 122.
125. Lovejoy, *Essays in the History of Ideas*, 147.
126. Turberville, A. S., ed., *Johnson's England*, II, 245.
127. Osborn, 119.
128. *Ibid.*, 145.
129. 146.
130. *Ibid.*
131. 149.
132. Brett, G. S., *History of Psychology* 423.
133. Condillac, *Traité des sensations*, 38
134. *Ibid.*
135. *Ibid.*, 70.
136. Wolf, 689.

CHAPTER XVII

1. Osler, *Evolution of Modern Medicine*, 187.
2. Sigerist, *Great Doctors*, 235.
3 Castiglioni, A., *History of Medicine*, 602
4. Williams, H S., *History of Science*, IV, 78.
5 Garrison, *History of Medicine*, 346.
6. *Ibid.*
7. Vartanian, *Diderot and Descartes*, 170.
8 Wolf, 263.
9. Locy, *Growth of Biology*, 443.
10. Castiglioni, 613.
11. Voltaire, *Philosophical Dictionary*, art. "Good."
12. Garrison, 402.
13. Besant, *London*, 380.
14. Himes, *Medical History of Contraception*, 187.
15. *Ibid.*, 191.
16. 198.
17. Chesterfield, *Letters*, Feb. 5, 1750.
18 Voltaire, *Works*, XIXb, 24.
19. Goncourts, *The Woman of the 18th Century*, 11.

20. See, *Economic and Social Conditions in France in the 18th Century*, 42.
21. Garrison, 321.
22. Traill, *Social England*, V, 425.
23. Chamousset in Lacroix, *Eighteenth Century in France*, 272.
24. *Ibid.*
25. Garrison, 400.
26. *Ibid.*
27. Castiglioni, 657.
28. Ducros, *French Society in the 18th Century*, 179.
29. Ercole, *Gay Court Life*, 421.
30. Harding, T. S., *Fads, Frauds, and Physicians*, 151.
31. Castiglioni, 641.
32. Traill, V, 51.
33. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, I, 308.
34. Halsband, *Life of Lady Mary Wortley Montagu*, 111.
35. White, A. D., *Warfare of Science with Theology*, II, 55.
36. *Ibid.*, 57; Garrison, 373.
37. Voltaire, *Works*, XIXb, 20.
38. Garrison, 351.
39. Besant, 377-78.
40. Garrison, 343.
41. *Ibid.*, 110.
42. La Mettrie, *Man a Machine*, dedication.
43. *Phil. Dict.*, art. "Physicians."
44. Ford, Boris, ed., *From Dryden to Johnson*, 211.
45. Havens, *The Age of Ideas*, 345.
46. Garrison, 353; Sigerist, 237.
47. Aldis, *Madame Geoffrin*, 191; Herold, *The Swiss without Halos*, 85.
48. Brandes, *Voltaire*, II, 111.
49. Mme. d'Épinay, *Memoirs*, III, 200.